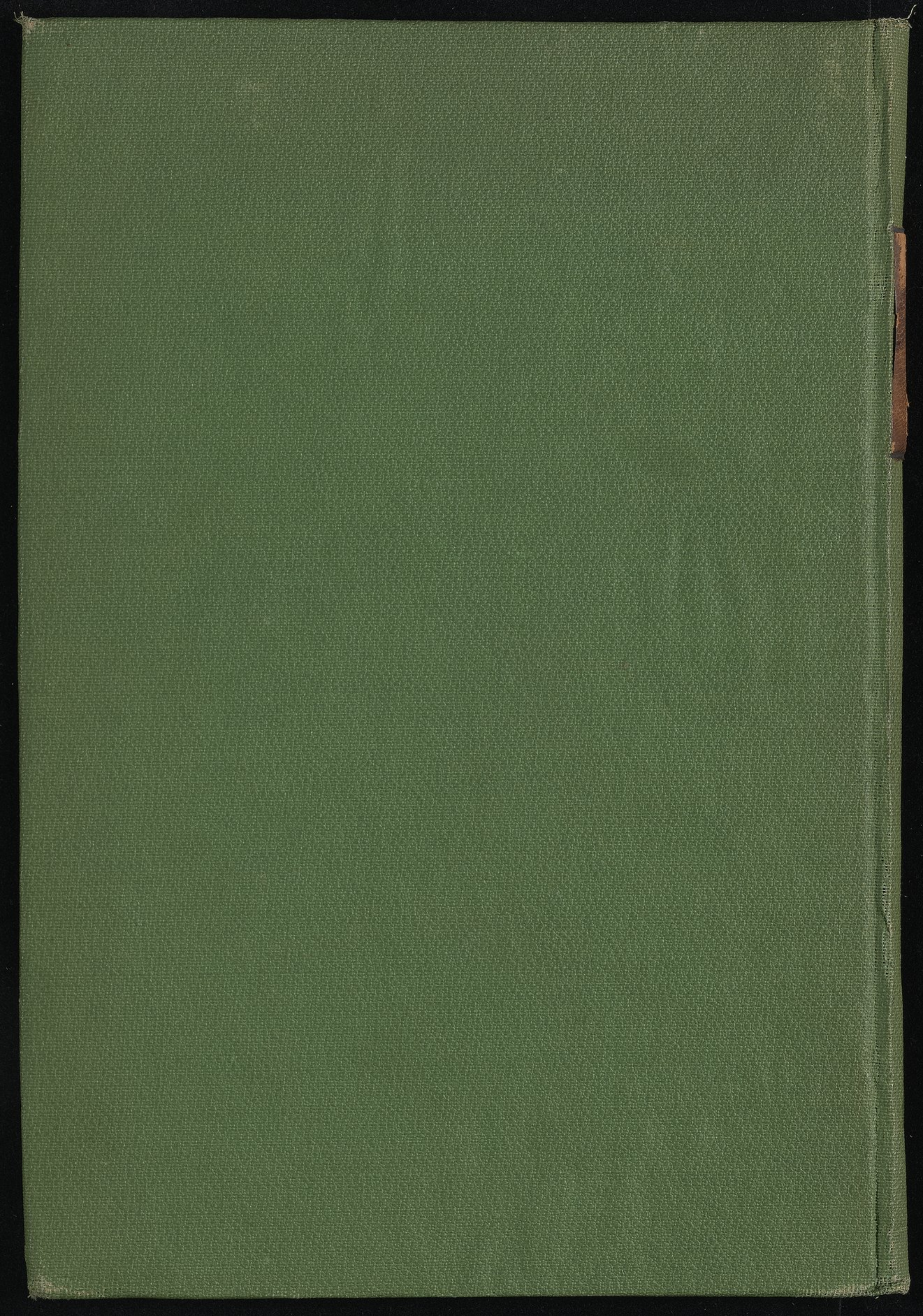
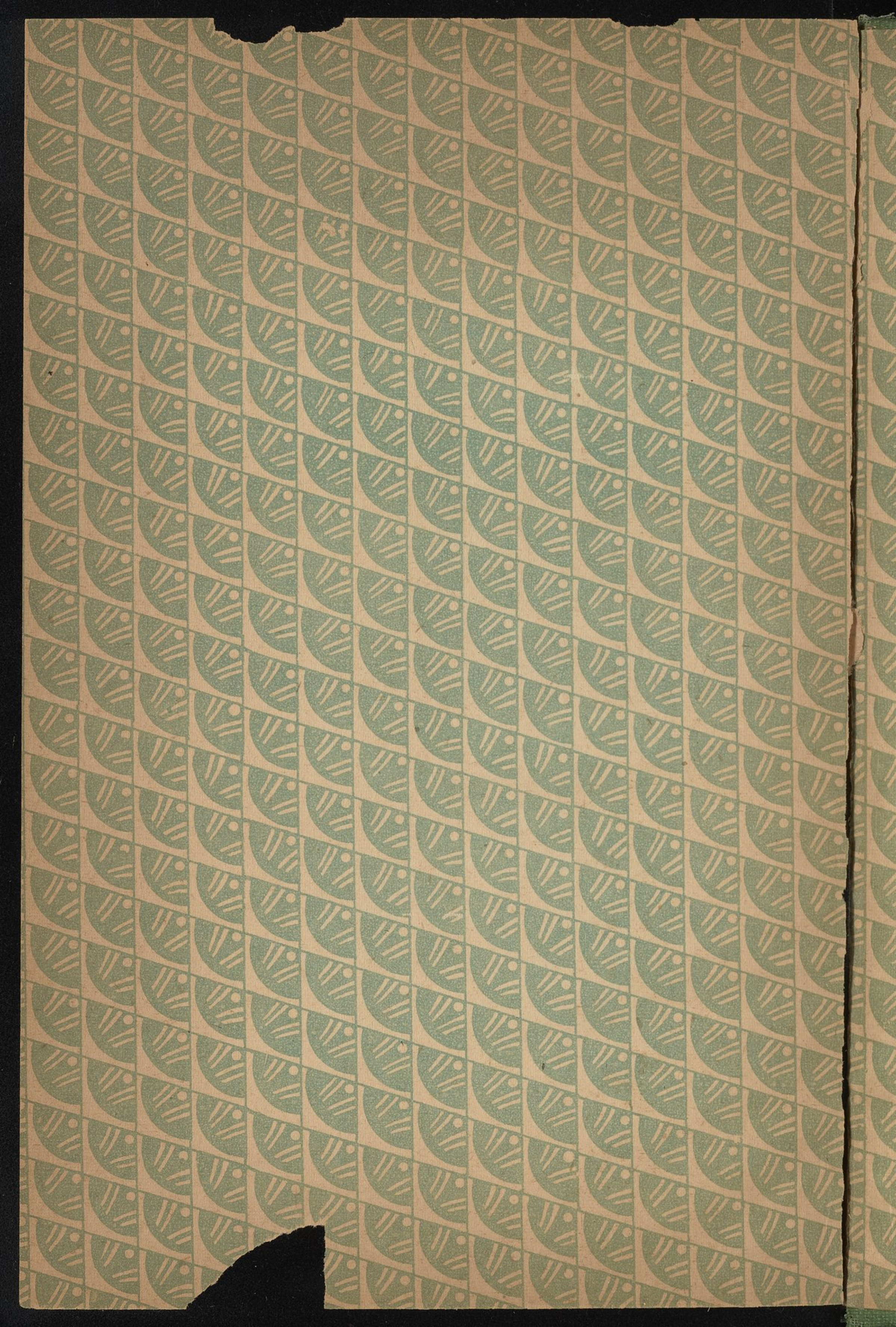




لجنة التأليف والترجمة والنشر

أبو العلاء المعرى

نسبه وأخباره .

شعره .

معتقده .

تأليف

المرحوم أحمد تيمور باشا

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٣٥٩ هـ — ١٩٤٠ م

بيـــان

كان الظن أن المؤلف ، طيب الله ثراه ، قد استوفى هذا الكتاب تأليفاً وإعدادا ؛ وأنه قد فرغ من جمع المواد ، وتمييز الأقسام ، وتبيين الفصول ، ومراجعة العبارة . ولكن وردت فى أضعاف الكتاب إشارات وعلائم تصرف هذا الظن .

من ذلك أنه جعل لقسم من الكتاب عنوانا هو : (شعره ونثره) وما يكون للمؤلف أن يهمل جانب النثر من آثار المترجَم له ؛ إلا أن فصول هذا القسم خالية كلها من حديث النثر كله . فالحتم أنه عقد العزم على أن يكسِر بعض فصول عليه .

ومن ذلك أنه بنى فصلا (المكرر من معانيه) وقد وُجِد مكتوبا فى ورق قصير من غير جنس الورق الذى كتب فيه سائر الكتاب ، وفى إحدى صفحاته جملة مستقلة يُفْهِم موضوعها أن المؤلف صاغها ليمهد بها لهذا الفصل ؛ وهذا المظهر يشهد بأن هذا الورق مسوّدة أبقيت للزيادة عليها ، والتغيير فيها . فإذا لوحظ إلى هذا أن الفصل قليل ضئيل مع سعة الموضوع وتشعبه ، وأن الأبيات المستشهد بها

جُلها من غير شعر اللزوم ؛ قام اليقين بأن المؤلف كان مقدراً إكمال موضوعه فيما بعد ، وتبييضه فى ورق مماثل لورق بقية الفصول ؛ جرياً على سنته فى إخراج هذا الكتاب .

ومن ذلك أنه عند الحديث فى (معتقده) ساق حكاية أبيات من قصيدة ، ثم قال : « وسأوردها بتمامها عند الكلام على منظومه ، فإنها من شعره المفقود » ، ولم ترد هذه الأبيات الموعود بها فى ثنايا الكتاب . فإن استُخْبِر مُفاد هذه الجملة ، أعطَى أنه كان يبغى إنشاء فصل لهذا النوع ، يجعله فى جملة فصول القسم الذى عنونه : (شعره ونثره) .

ومن ذلك أنه قال فى خاتمة الفصول الموجودة من هذا الكتاب : « . . . بدليل ما ذكرناه من الكلام وما سنذكره » ، وواضح أن هذه كلمةُ من لم يقض مأربه من القول بعدُ .

يضاف إلى هذه جميعاً أن حواشى الأوراق حافلة بألوان من الزيادة والإبدال والإصلاح ، مما يدع الرأى مطمئناً إلى أن النسخة كانت فى حياة المؤلف لا تزال بين يديه : يراجع فيها تسريح الناظر ، وإجراء الخاطر ، وإعمال القلم .

على أنه ربما يكون قد أجّل معاودة الكتاب إلى فرصة لم تسنح ، وأَوْلاه مهلة اتصلت بانتقاله إلى جوار ربه ؛ فإنه لما عَرّف بكتاب

الفصول والغايات ، فى فصل (مؤلفاته) ؛ اقتصر على بيان طريقته وموضوعه ، فما أشار المؤلف إلى حصوله على مخطوطة الجزء الأول من هذا الكتاب النادر ؛ ولهذه الإشارة شأنها ، إذ هى إعلام بمكان تحفة كانت مفقودة ، ووجدان ضالة ظلت منشودة . ومن سبيل المؤلف فى كتابه هذا أنه ما تَعَرَّض مناسبة كتاب غير مشهور ، أو أثر عزيز الوجود ؛ إلا هَدَى إلى مخبئه ، وعَرَّف بنسختة ، ولم يفته أن يذكر حصوله عليه إن كان . وما دام هذا صنيعه فى الكتب العارضة ، فمثل هذا الصنيع فى كتب المترجَم له أولى وأحق . وإذاً فلا بد أن يكون المؤلف قد وادع مخطوطة الكتاب قبل أن يحصل على نسخة الفصول والغايات ، ثم لم يعاوده حتى لبى نداء ربه خالد الذكر ، حميد الأثر ؟

مشتملات الكتاب

نسبه وأخباره

شعره

معتقده

نسبه وأخباره

فصل فى نسبه .

« « بيته .

« « مولده ووفاته وحليته .

« « نشأته وطلبه العلم ورحلته .

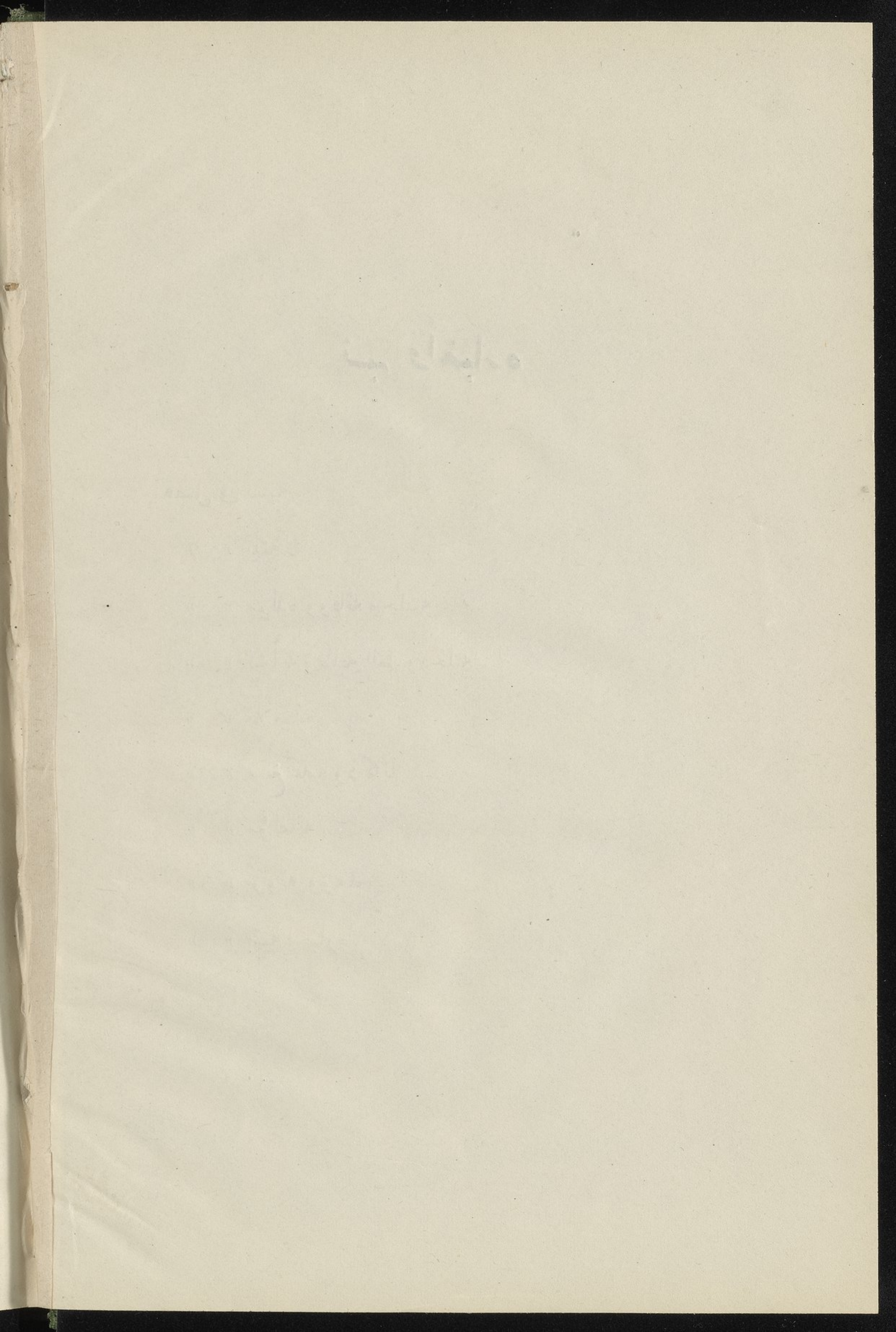
« « تلاميذه .

« « مبلغ علمه وذكائه .

« « مؤلفاته .

« « ثروته وزهده .

« « بقية أخباره .



فصل فى نسبه

هو أبو العَلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان بن محمد بن سليمان بن أحمد بن سليمان بن داود بن المطهر بن زياد بن ربيعة بن الحرث بن ربيعة بن أنور بن أسحم بن أرقم بن النُّعْمان بن عدى بن غَطَفَان بن عمرو بن بَرِيح بن خُزَيْمة بن تَيْم الله بن أسد بن وبرة بن تَغْلِب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة التَّنُوخِىّ المعَرِّىّ. هكذا ساق نسبه ابن خلكان، وهو أصح ما وجدناه بالمعارضة على ما فى كتب الأنساب؛ فإن فيما ذكره ياقوت فى «إرشاد الأريب» إسقاطاً لبعض الأسماء، واضطراباً فى ترتيب بعضها، فاعتمدنا على رواية ابن خلكان بعد تصحيح ما حُرِّف منها، فإن خُزَيْمة بن تَيْم الله جاء فى النسخة المطبوعة ببولاق: جَذِيمة بالجيم والذال المعجمة، وما نُصَّ عليه فى كتب اللغة والأنساب خُزَيْمة بالخاء والزاى مُصغراً. وتيْم الله بن أَسَد هكذا فى جميع ما وقفنا عليه من الكتب، وجاء به أبو العلاء فى سقط الزند تيم اللّات، فى قوله:

سألته قبل يوم السير مَبْعَثَهُ ❊ إليك ديوان تيم اللّاتِ ما لِيتَا

وقد يكون هذا تحريفاً فى النسخة، إلا أن مَنْ خَبَرَ شعر أبى العلاء، ومذهبه فى تكلفه الصناعة والتجنيس، رجح أنه ما أتى بقوله مَا ليتَ، أى ما نُقص، بعد قوله اللات، إلا إرادة للتجنيس. والله أعلم. وقد يذهب الظن إلى أن تيم اللات هذا ربما كان غير تيم الله المذكور مقدماً، وهو مردود بما ذكره الشارح فى سياقهِ نسبه عند شرح البيت. على أن فيما ذكره ابن خلكان ما لا يسكت عنه أيضاً، وما نقلناه عنه هو ما وجدناه فى النسخة المطبوعة ببولاق، والنسخة المطبوعة بباريس. ونقل ابن الوردى فى تاريخه عبارة ابن خلكان، فأسقط

أحمد بن سليمان من سلسلة النسب ، و يوافقه ما فى «الـكوكب الثاقب» لعبد القادر ابن عبد الرحمن السَّلَوىّ ، إلّا أنه أسقط محمد بن سليمان بدل أحمد . وعلى كل حال فالظاهر أن ما ورد فى ابن خلكان فيه زيادة اسمين ربما سبق بهما قلم الناسخ .

وجدّه الأعلى قُضاعَة بن مالك أبو حَىّ من اليمن ينتهى نسبه إلى قَحْطَان ، هذا هو المشهور . وزعم نُسَّاب مُضَر أنه قضاعة بن مَعَدّ بن عدنان ، وأن مالـكا زوج أمّه ، والنسب إلى زوج الأم عادة معروفة عند العرب ، ولعلماء الأنساب فى ذلك اختلاف كثير ، ولهذا قال محمد بن سلام البصرى النَّسَّابَة لمّا سئل : أنِزَار أكثر أم اليَمَن ؟ فقال : إن تمعددت قضاعة فنزار أكثر ، وإن تيمّنت فاليَمَن . وعلى القول الأول قول بعضهم :

قُضَاعَةُ بْنُ مَالِكِ بْنِ حِمْيَرِ ... النَّسَبُ المَعْرُوفُ غَيْرُ المُنْكَرِ

وعلى القول الثانى قول الـكُمَيْتِ الأَسَدِىّ يخاطب قُضاعة :

فإنَّكِ والتَّحَوُّلَ عن مَعَدٍّ ... كَحَالِيَةٍ تَزَيَّنُ بالْعُطُولِ

تُغَايِظُ بالتَّعَطُّلِ جارَتَيْهـا ... وبالْأَحْمَاءِ تَبْدَأُ والْحَلِيلِ

فمَهْلًا يا قُضَاعَةُ لا تَـكُونِى ... كَقِدْحِ خَرَّ بَيْنَ يَدَىْ مُجِيلِ

وَمَا مَنْ تَهْـتِفِينَ بِهِ لِنَصْرٍ ... بأَقْرَبَ جَابَةً لَكِ من هَدِيلِ

وسُمّى قُضَاعة لانقضاعه عن قومه مع أمه ، أى انقطاعه عنهم ؛ أو مِن قَضَعه ، أى قهره . وقيل بل هو اسم منقول ، وأصل القُضاعة الفَهْد .

والتَّنُوخِىّ نسبة إلى تَنُوخ كصبور ، وتشديد النون خطأ ؛ وهم قبيلة من اليمن من قضاعة ، سُمُّوا بذلك لأنهم اجتمعوا وتحالفوا ، وتَنَخوا بمكان فى الشام أى أقاموا فيه ، ومن الناس من يطلق تَنُوخَ على الضَّجَاعِمَةِ ودَوْس الذين تنخوا بالبحرين ، والاختلاف فى ذلك كثير أيضاً . ونقل عن أبى عُبَيْد أنهم تنخوا

على مالك بن زُهَير بن عمرو بن فَهْم بن تَيْم الله بن أسد ، وعلى مالك بن فهم عم مالك بن زهير . وذكر الحمدانى أن المَعرَّة من بلاد الشام هى صليبة تنوخ ، بمعنى أن بها جمعهم المستكثر . وفى « إرشاد الأريب » لياقوت أن تيمَ الله بن أسَد هو مجتمع تنوخ من أهل مَعرَّة النعمان . وقال أبو يعقوب النحوى فى شرح « سقط الزند » أن تَيْم الله هو مجتمع تنوخ فى النسب ، ولم يخص أهل المعرة . ويوافقه ما ذكره ياقوت فى معجم البلدان ، إلا أن أبا يعقوب سماه تَيْم اللات كما قدمنا . وكان شعار تنوخ فى حروبهم : (وَاصِلْ ، وَاصِلْ) ، وإليه أشار أبو العلاء فى لزومياته بقوله :

فِرَّ من هـذه البريّة فى الأر ض فما غير شرّها لك حاصلْ
فشِعَارِى قاطعْ وكان شعاراً لتَنُوخٍ فى سالف الدهر واصِلْ

والشعار : العلامة فى الحرب ، وفى الحديث أن شعار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فى الغزو : (يا مَنْصُورُ أمِتْ أمِتْ) وهو تَفَاؤُلٌ بالنصر بعد الإماتة . واسْتَشْعَرَ القومُ إذا تَدَاعَوْا بالشِّعَار فى الحرب .

والمَعَرِّىّ نسبة إلى معرة النُّعْمان ، وهى بلدة بالشام من أعمال حمص بين حلب وحماة ، وليست منسوبة للنعمان بن المنذر كما توهمه بعضهم ، بل نُسِبَت فيما ذكروا للنعمان بن بشير الأنصارىّ ، لأن وَلَدًا له مات وهو مجتاز بها ، فدفنه فيها وأقام أياماً حزيناً ، فنسبت إليه لذلك . قال ياقوت فى معجم البلدان : وهذا فى رأيى سبب ضعيف لا تسمى بمثله مدينة ، والذى أظنه أنها مسماة بالنعمان الملقب بالساطع . قلت : وهو النعمان بن عدى ، أحد أجداد المعرى المذكورين فى نسبه . والذى ذكره ياقوت مقبول ، فإن تسمية بلدة باسم أحد قطّانها المشهورين فيها أقرب من تسميتها بأحد المجتازين بها . وذهب الشريشى فى شرح المقامات إلى

أنها أضيفت لجبل مطل عليها اسمه النعمان ، ولم يذكر ياقوت هذا الجبل .

ومن شعر أبى العلاء فيمن عيَّره باسم بلده :

يعيرنا لفظ المعرّة أنهـــا من العرّ قوم فى العُلا غُرَباء
وهل لَحِق التثريبُ سكّانَ يَثْرِب من الناس ، لا ، بل فى الرجال غَبَاء
وذُو نَجَبٍ إن كان ما قيل صادقاً فما فيـــه إلّا مَعْشَرٌ نُجَبَاء

أى إن كان اسم البلد له تأثير على ساكنيه ، على ما زعم هؤلاء الزاعمون ، فيلزم منه أن التثريب لاحِقٌ لسكان يثرب ، وهى مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام . ويلزم منه أيضاً أن يكون سكان ذى نَجَبٍ كلهم نُجَباء ، مع أن فيهم النجيب وغير النجيب كسائر سكان البلاد .

ومن شعره فى اسمه :

وأحمد سمّانى كبيرى وقلّما فعلتُ سوى ما أستحق به الذمّا

وقال أيضاً :

رُوَيْدَكَ لو كَشَّفْتَ ما أنا مضمرٌ من الأمر ما سمّيتنى أبداً باسمى
أُطهِّرُ جسمى شاتياً ومُقَيِّظاً وقلبِيَ أولى بالطهارة من جسمى

وقال فى كُنْيَتِه :

عرفْتُكِ جيداً يا أُمَّ دَفْرٍ وما إن زلتِ ظالمةً فزولى
دُعيتُ أبا العَلاء وذاكَ مَيْنٌ ولكن الصحيح أبو النزول

يقول ذلك جرياً على عادته فى الخمول والتواضع .

وقد خلط بعض العصريين بين أبى العلاء المعرى ، وأبى العلاء صاعد اللغوى ، لاتفاقهما فى الكنية واشتهار كليهما باللغة ، فنسب للمعرّىّ كتاباً اسمه الفصوص فى قصة ساقها ، وإنما هو لصاعد ، وسيأتى تفصيل ذلك فى فصل مؤلفاته .

فصل فى بيتـــه

كان أبو العلاء من بيت علم وقضاء ، ورياسة وثراء . تولى جماعة من أهله قضاء المعرة وغيرها ، ونبغ منهم قبله و بعده كثيرون راسوا وساسوا ، وكان فيهم العالم والكاتب والشاعر . ولأهل المعرة اعتقاد كبير فيهم ، ولِواذٌ بهم ، وفزع إليهم فى أمورهم . وذكروا أن كمال الدين بن العديم عقد فصلا لتراجمهم وأخبارهم فى كتابه : « دفع التحرى ، عن أبى العلاء المعرى » . إلا أنى لم أظفر بهذا الكتاب مع كثرة بحثى وتنقيبى عنه ، فاعتمدت فى أكثر ما أذكره هنا على ما فى « إرشاد الأريب » لياقوت ، و « الكوكب الثاقب » لعبد القادر بن عبد الرحمن السَّلَوِىّ ، وتركت كثيراً منهم لعدم تحقق من صحة أنسابهم وألقابهم ، بسبب تحريف النسخ :

فمنهم : « جده الأدنى سليمان بن محمد أو أحمد » الشهير بقاضى المعرّة ، وولى أيضاً القضاء بحمص ، وبها مات سنة ٢٩٠ هـ . وكان أبوه شاعراً .

« عمه أبو بكر محمد بن سليمان » ولى القضاء بعد أبيه ، وفيه يقول الصَّنَوْبَرِىّ :

بأبى يا ابن سليما ... ن لقد سُدْتَ تَنُوخا

وهم السادة شُبَّا ... نًا لعمرى وشيوخا

أدركَ البُغْيَةَ من أض ... حى بناديك مُنِيخا

وارِدًا عندك نِيلاً ... وفُراتًا وبَلِيخَا[1]

واجداً منك متى استَصْ ... رَخَ للمجد صَرِيخا

فى زمان غادر الهمَّـات فى الناس مسوخا

---

(١) النيل بمصر ، والفرات بالعراق ، وبليخ بفتح فكسر نهر الرقة .

« أبوه عبد الله بن سليمان » ولى القضاء بعد أخيه محمد بن سليمان ، وتوفى بحمص سنة ٣٧٧ ﻫ . ومن شعره فى رثاء والده :

إن كان أصبح من أهواه مُطَّرَحاً ببـاب حمص فما حزنى بمُطَّرَحِ
لو بان أيسر ما أخفيه من جزع لمـات أكثر أعدائى من الفرح

ورثى أبو العلاء والده بقصيدة نونية أولها :

نقمت الرضا حتى على ضاحك المُزْنِ فما جادنى إلاَّ عبوس من الدَّجْنِ

وسنورد مختارها عند الكلام على منظومه .

« أخوه أبو المجد محمد بن عبد الله بن سليمان » كان أسَنَّ من أبى العلاء ، ومن شعره فى الزهد :

كرم المهيمن منتهى أملى لا نيَّتى أجـر ولا عمـلى
يا مُفْضِـلاً جلّت فواضـله عن بغيتى حتى انتهى أجلى
كم قد أفضتَ علىَّ من نِعَمٍ كم قد سترت علىَّ من زلل
إن لم يكن لى ما ألوذ به يوم الحساب فإن عفوك لى

« أخوه أبو الهيثم عبد الواحد بن عبد الله بن سليمان » كان شاعراً كأبيه وأخويه أبى المجد وأبى العلاء ، ومن شعره :

قالوا نراه سَلَا لِأَنْ ضَنَّتْ جفونه عشية بَيْنِنَا بدموعها
ومن العجائب أن تفيض مدامع نار الغرام تشب فى ينبوعها

وله فى الشمعة :

وذات لون كلونى فى تغيّره وأدمع كدموعى فى تحدّرها
سهرت ليلى وباتت لى مسهّرة كأن ناظرها فى قلب مسهرها

قلت : ومهما قيل فى الشمعة ، فليس لقصيدة القاضى ناصح الدين الأرّجانى ضريب فى هذا الباب ، فقد بَذَّ بها من تقدّمه وأعيا من بعده ، إذ يقول :

نَمَّتْ بأسرار ليل كاد يُخْفيها ... وأطلعت قلبها للناس مِنْ فيها

سفيهة لم يزل طول اللسان لها ... فى الحىّ يَجْنِى عليها ضَرْبَ هاديها

غريقة فى دموع وهى تحرقها ... أنفاسُها بدوام من تلظّيها

تَنَفَّست نَفَسَ المهجورة ادّكرت ... عهدَ الخَلِيطِ فباتَ الوجد يُبْكِيها

يُخشى عليها الرَّدَى مهما ألَمَّ بها ... نسيمُ ريحٍ إذا وافى يُحيّيها

كأنّها غُرّةٌ قد سال شارخها ... فى وجه دَهْماء يزْهاها تجلّيها

أو ضرة خلقت للشمس حاسدة ... فكلما حُجبت قامت تحاكيها

لها غرائب تبدو من محاسنها ... إذا تفكرتَ يوماً فى معانيها

فالوجنة الورد إلّا فى تناولها ... والقامة الغصن إلا فى تثنّيها

صُفْرٌ غلائلها حُمْرٌ عمائمها ... سود ذوائبها بيض لياليها

تحيي الليالِيَ نوراً وهى تقتلها ... بئس الجزاء لعَمْرُ الله تجزيها

ولولا خوف الإطالة لذكرتها بتمامها لغرابتها .

وأتى بعد أبى العلاء جماعة ذكر منهم ياقوت ثمانية أسماء ، وأضرب عن ذكر غيرهم اختصاراً ، وغالبهم تولوا القضاء بالمعرة ، وكفرطاب ، وحماة . ومنهم من تولى ديوان الإنشاء .

وإنما تركت ذكرهم لما قدمت من تحريف أسمائهم فى النسخة .

فصل فى مولده ووفاته وحليته

ولد يوم الجمعة عند مغيب الشمس لثلاث بقين من شهر ربيع الأول سنة ٣٦٣ . وعمى بالجدرى أول سنة ٣٦٧ . غشى يمنى عينيه بياض ، وذهبت اليسرى جملة . وكان يقول : لا أعرف من الألوان إلا الأحمر ، لأنهم ألبسونى حين جدرت ثوباً معصفراً ؛ لا أعقل غير ذلك . وقال فى إحدى رسائله إلى داعى الدعاة : (وقد علم الله أن سمعى ثقيل ، و بصرى عن الإبصار كليل ، قُضِيَ علىَّ وأنا ابن أربع ، لا أفرق بين البازل[1] والرُّبَع[2]) فلا وجه إذاً لمن زعم أنه ولد أكمه .

وحكى السِّلفى عن أبى محمد الإيادى أنه دخل مع عمه على أبى العلاء يزوره ، فرآه قاعداً على سجادة لِبْدٍ وهو شيخ . قال : فدعانى ومسح على رأسى ، وكنت صبيا ، وكأنى أنظر إليه الساعة وإلى عينيه إحداهما بارزة والأخرى غائرة جدا ، وهو مجدر الوجه ، نحيف الجسم .

ونقل الثعالبى عن المصيصى الشاعر ، قال : رأيت بمَعَرة النعمان عجباً من العجب ، رأيت أعمى شاعراً ظريفاً يلعب بالشطرنج والنرد ، ويدخل فى كل فن من الجد والهزل ، يكنى أبا العلاء ، وسمعته يقول : أنا أحمد الله على العمى ، كما يحمده غيرى على البصر . انتهى .

وقال الشيخ عبد الغنى النابلسى فى رحلته الكبرى المسماة بالحقيقة والمجاز ،

---

(١) البازل من الجمال الذى بلغ تسع سنين ، وليس بعده سن تسمى .

(٢) والربع كصرد الفصيل ينتج فى الربيع وهو أول النتاج ، فإذا نتج فى آخر النتاج فهو هبع ، ومراد أبى العلاء : لا أفرق بين الكبير والصغير .

فى رحلة الشام ومصر والحجاز ، عند كلامه على القدس وما فيها : « ودخلنا إلى المدرسة المسماة بالفخرية ، وهى فى غاية من الحسن والإتقان ، وكمال البهاء وجمال البنيان ، وفيها جملة من الكتب ، ورأينا فيها ديوان أبى العلاء المعرىّ وشرحه ، ورأينا هناك مكتوباً له هذين البيتين ، وهما قوله :

قالوا العمى منظر قبيح قلت بفقدى لكم يهون
والله ما فى الأنام شىء تأسى على فقده العيون

ويناسبه قوله أيضاً :

أبا العلاء يا ابن سليمانا إن العمى أولاك إحسانا
لو أبصرت عيناك هذا الورى ما أبصرت عيناك إنسانا »

انتهى كلام الشيخ . والبيتان الأولان اختلفوا فى قائلهما ، فنسبهما الصفدى فى شرح لامية العجم ج ٢ ص ٢٨٤ لأبى العلاء كما ذكر الشيخ ، ولكن روايته (ما فى الوجود) بدل (ما فى الأنام) .

ونسبهما الشريشى فى شرح المقامات لبشار بن برد ، وروايته (ما فى البلاد) ، ونسبهما الوطواط (فى الغرر والعرر ص ١٦١) لأبى العيناء ، وروايته (والله ما فى الأنام حر) والله أعلم .

والبيتان الآخران لم أجدهما فى شعر أبى العلاء ، ولعلهما من شعره المفقود .

فإن قيل : كيف كان يحمد الله على العمى ، وهو القائل فى عكسه يتمنى الإبصار :

فليت الليالى سامحتنى بناظر يراك ومن لى بالضحى فى الأصائل
فلو أنَّ عيْنِى متَّعَتْها بنظرة إليك الأمانى ما حَلمتُ بغائل

قلنا : ليس هذا من التناقض فى شىء ، ولكل مقام مقال ؛ لأنه أبان فى الأول عن مذهبه ورأيه فى الوجود ، وجرى فى الثانى على طريقة الشعراء فى مدائحهم ؛

إذ كان المقام يقتضيه . ومن هذا تعلم فرق ما بين شعريه فى سقط الزند واللزوميات ، لاختلاف المقامين وتباين الوجهتين . وإن صحت نسبة البيتين السابقين لأبى العيناء كما ذكر الوطواط ، فقد جرى على مثل هذا أيضاً فى قوله للمتوكل وقد سأله عن أصعب ما مر عليه فى فقد بصره ، فقال له : فقدى لرؤيتك يا أمير المؤمنين .

ومن قول أبى العلاء فى عماه ، وهو مما رواه له الصفدى :

سواد العين زار سواد قلبى ليتفقا على فهم الأمور

يشير بذلك إلى أن العميان عُوِّضوا عن البصر الذكاء وسرعة الحفظ ، وقريب منه ما ينسب لسيدنا عبد الله بن عباس ، وكان أصيب فى بصره فى آخر عمره :

إن يأخذ الله من عينىّ نورهما ففى فؤادى وقلبى منهما نور

قلبى ذكى وعقلى غير ذى دخل وفى فمى صارم بالقول مشهور

وغاية الغايات فى هذا الباب قول بشار بن برد فيمن عيَّره بالعمى ، وإن كان من غير هذا المعنى :

وعيرنى الأعداء والعيب فيهم وليس بعار أن يقال ضرير

إذا أبصر المرء المروءة والتقى فإن عمى العينين ليس يضير

رأيت العمى أجراً وذخراً وعصمة وإنى إلى تلك الثلاث فقير

ومن طرائف أبى العلاء أنه لما فرغ من تصنيف كتابه اللامع العزيزى فى شرح ديوان المتنبى ، وقرئ عليه ، أخذ الجماعة فى وصفه ، فقال : كأنما نظر المتنبى إلى بلحظ الغيب حيث يقول :

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى وأسمعت كلماتى من به صمم

وكان أبو حزم مكّى بن ريان المقرى الضرير الملقب بصائن الدين يتعصب لأبى العلاء ، ويطرب إذا قرئ عليه شعره للجامع بينهما من العمى والأدب ،

فسلك مسلكه فى النظم . كذا ذكر ابن خلكان نقلا عن ابن المستوفى .

وتوفى رحمه الله يوم الجمعة ، ثالثَ ، وقيل ثانِيَ ، وقيل ثالثَ عشرَ ربيع الأول سنة ٤٤٩ بالمعرة ، فى خلافة القائم العباسى ، وله من العمر نحو ست وثمانين سنة ، ومرض ثلاثة أيام ، ولم يكن عنده غير بنى عمه ، فقال لهم فى اليوم الثالث : اكتبوا عنى ، فتناولوا الدُّوِىَّ والأقلام ، فأملى عليهم غير الصواب ، فقال لهم القاضى أبو محمد عبد الله التنوخى : أحسن الله عزاءكم فى الشيخ فإنه ميت . فمات من غده ، ودفن فى ساحة من دور أهله . قال القفطى : أتيت قبره سنة خمسين وستمائة ، فإذا هو فى ساحة من دور أهله وعليه باب ، فدخلت فإذا القبر لا احتفال به ، ورأيت عليه خُبازى يابسة ، والموضع على غاية ما يكون من الشعث والإهمال . وقال الذهبى وقد رأيت قبره بعد مائة سنة من رؤية القفطى ، فرأيت نحواً مما حكى . انتهى . ويقال إنه أوصى أن يكتب عليه :

هـذا جناه أبى علىَّ وما جنيت على أحدْ

ونقل الصفدى عن خط علاء الدين الوداعى قال : زرت قبره بالمعرة رحمه الله تعالى فى ربيع الأول سنة تسع وسبعين وستمائة ، ولم أر عليه شيئاً من ذلك ، وقد دثر ولصق بالأرض ، وعملت هذين البيتين :

قد زرت قبر أبى العلاء المرتضى لما أتيت معرة النعمان

وسألت من غفر الخطايا أنه يهدى إليه رسالة الغفران

قلت : وقبره معروف إلى اليوم أى سنة ١٣٢٧ بالمعرة ، ولأهلها اعتقاد كبير فيه ، ويزعمون أن الماء إذا بيت فى قارورة عند قبره ، وشرب به فى الغد صبى به حبسة فى لسانه ، أو بلادة فى ذهنه ، زال ذلك عنه ببركة أبى العلاء .

ونقل ياقوت فى « إرشاد الأريب » عن ابن الهبارية ، أن السبب فى وفاة

أبى العلاء مكاتبات جرت بينه و بين أبى نصر بن أبى عمران داعى الدّعاة بمصر ، دعت إلى الأمر بإحضاره إلى حلب ، وَوَعْده على الإسلام خيراً من بيت المال ، فلما علم أنه يحمل للقتل أو الإسلام سَمّ نفسه فمات . قال ياقوت : وقد ظفرت بتلك الرسائل ، فلم أجد بها ما يدل على ما ذهب إليـه ابن الهبارية . انتهى . وأقول : هذه الرسائل هى التى لخصها ياقوت فى كتابه المذكور ، وقد ظفرت بها أنا أيضاً ، وهى عندى تامة فى نسخة مخطوطة ، وليس فيها شىء من ذلك . و بعد فأى إسلام كان يريده منـه داعى الدعاة ، وهو رئيس الباطنية فى الدولة الفاطمية ، والداعى إلى مذهبهم ، ونحلة القوم معروفة لا تحتاج لبيان . ومن راجع دعواتهم فى خطط المقريزى علم كيف كانوا يأخذون الداخل فى مذهبهم بتشكيكه فى دينه أولاً ، ثم الخروج به رويداً رويداً من الإسلام ، حتى ينتهوا به إلى الإلحاد . فهل كان ما عليـه هؤلاء القوم هو الإسلام فى نظر ابن الهبارية حتى يتبجح بهذه الدعوى ؟ ؟

وكان رحمه الله قصير القامة ، نحيف الجسم ضعيفه ، مشوه الوجه بآثار الجدرى ، ومُنِى فى آخر عمره بالإقعاد ، ولما مات ختم عند قبره فى أسبوع واحد مائة ختمة ، وفى رواية مائتان ، واجتمع عليـه خلق كثير ، وأنشد أربعة وثمانون شاعراً مراثيهم فيه . منها قصيدة طويلة لتلميذه على بن همام ، يقول فيها :

إن كنت لم ترق الدماء زهادة	فلقد أرقت اليوم من جفنى دما
سيرت ذكرك فى البلاد كأنه	مسك تضمخ منه سمعا أو فما
وترى الحجيج إذا أداروا ليلة	ذكراك أوجب فدية من أحرما

قال ياقوت : كأنه يقول إن ذكرك طِيبٌ والطيب لا يحل للمُحرم ، فتجب عليه فدية . ورثاه أبو الرضى عبد الرحمن بن نوت المعرى بقصيدة نذكر منها ما وقفنا عليه فى « الكوكب الثاقب » لعبد القادر السّلوىّ ، وهو :

سمر الرماح و بيض الهند تشتور … فى أخذ ثأرك والأقدار تعتذر
والدهر فاقد أهل العلم قاطبة … كأنهم بك فى ذا القبر قد قبروا
فهل تُرَى بك دار العلم عالمة … أن قد تزعزع فيها الركن والحجر
والعلم بعدك علم فات منصله … والفهم بعدك قوس ما له وتر

ورثاه الأمير أبو الفتح الحسن بن عبد الله بن أبى حصينة المعرى بقوله :

العلم بعد أبى العلاء مضيع … والأرض خالية الجوانب بلقع
أودى وقد ملأ البلاد غرائبا … تسرى كما تسرى النجوم الطُّلَّع
ما كنت أعلم وهو يودع فى الثرَى … أن الثرَى فيه الكواكب تودع
جبل ظننت وقد تزعزع ركنه … أن الجبال الراسيات تزعزع
وعجبت أن تسع المعرة قبره … ويضيق بطن الأرض عنه الأوسع
لو فاضت المهجات يوم وفاته … ما استكثرت فيه فكيف الأدمع
تتصرم الدنيا وتأتى بعده … أمم وأنت بمثله لا تسمع
لا تجمع المال العتيد وجد به … من قبل تركك كل شىء تجمع
وإن استطعت فسر بسيرة أحمد … تأمن خديعة من يغر ويخدع
رفض الحياة ومات قبل مماته … متطوعا بأبر ما يتطوع
عين تسهد للعفاف وللتقى … أبداً وقلب للمهيمن يخشع
شيم تجمله فهن بلحده … تاج ولكن بالثناء يرصع
جادت ثراك أبا العلاء غمامة … كندى يديك ومزنة لا تقلع
ما ضيع الباكى عليك دموعه … إن الدموع على سواك تضيع
قصدتك طلاب العلوم ولا أرى … للعلم بابا بعد بابك يقرع
مات النُّهى وتعطلت أسبابه … وقضى التأدب والمكارم أجمع

فصل فى نشأته وطلبه العلم ورحلته

نشأ بالمعرة ، وأخذ النحو واللغة عن أبيه ، وعن محمد بن عبد الله بن سعد النحوى بحلب ، وحدث عن أبيه وجده . ثم رحل إلى بغـداد ، فسمع من عبد السلام بن الحسين البصرى . هكذا ذكر السيوطى فى بغية الوعاة ، قال : وقد أسندنا حديثه فى الطبقات الـكبرى ، وله ذكر فى جمع الجوامع . وذكر غيره أن أبا العلاء لما قدم بغداد ، قصد أبا الحسن على بن عيسى الربعى ليأخذ عنه ، فلما أراد الدخول عليه ، قال الربعى : ليدخل الإصطبل ؛ فخرج مغضباً ولم يعد إليه . والإصطبل بلغة أهل الشام الأعمى . قلت : وهى لفظة معربة ، ذكرها الخفاجى فى شفاء الغليل ، قال : ولذا قال ابن عباد : جرّوا الإصطبل فى قصته مع المعرى . ولعل الخفاجى أراد المرتضى ، ووهم فذكر ابن عباد . وستأتى القصة .

وذكر أبو الفداء أنه دخل بغداد واستفاد من علمائها ، ولم يُتَلْمِذْ لأحد أصلا ، وهو يخالف ما ذكره السيوطى وابن خلكان وغيرهما . وكان قد رحل أولا إلى طَرَابُلُسَ ، وبها خزائن كتب موقوفة ؛ فأخذ منها ما أخذ من العلم . ثم رحل إلى بغداد سنة ٣٩٨ فأقام بهـا سنة وسبعة أشهر ، ثم رجع إلى المعرة وأقام بها إلى وفاته . وقول ابن خلكان إنه دخل بغداد سـنة ٣٩٨ ، ودخلها ثانيا سنة ٣٩٩ . وأقام بهـا سنة وسبعة أشهر ، لا يستقيم مع ما سيرد عليك فى فصـل مؤلفاته ، من تصريحه عن نفسه أن رجوعه إلى المعرة ولزومه منزله كان سنة ٤٠٠ .

وقبل قدومه إلى المعرة بمدة يسيرة ماتت أمه ، وأصيب فى مال له ، فرثاها بقصيدة ميمية طويلة ، وأخرى بائية ، وكتب إلى بغداد يخاطب صديقه وتلميذه

القاضى أبا القاسم على بن المحسّن التنوخى بقصيدة ضمنها أغراضاً يقول فيها معتذراً عن مفارقته العراق :

أثارنى عنكمُ أمران والدة | لم ألقها وثراء عاد مسفوتا(١)
أحياهما الله عصرَ البَيْنِ ثم قضى | قبل الإياب إلى الذخرين أن موتا
لولا رجاء لقائِيها لما تبعت | عَنْسِى دليلا كَسِرّ الغمد إصليتا(٢)
ولا صحبتُ ذئاب الإنْس(٣) طاوية | تراقب الجدى فى الخضراء مسبوتا(٤)

ولما استقر بالمعرة لزم داره ، وشرع فى التصنيف والإفادة ، وأخذ عنه الناس ، وقصده الطلبة من الآفاق ، وكاتبه العلماء والوزراء وأهل الأقدار ، وسمى نفسه : « رهن المحبسين » يعنى حبس نفسه فى المنزل ، وحبس بصره بالعمى .

وما فتئ وهو بعيد عن بلده ، يحن إليه ويشتاقه ، ويذكره فى شعره ، وفيه يقول :

سرى برقُ المعرة بعد وَهْن | فبات برامة يصف الكَلالا
شجا رَكْباً وأفراسا وإبْلا | وزاد فكاد أن يشجو الرحالا
بها كانت جيادهم مهارى | وهم مُرْدًا وبُزْلُهُم فِصالا

وقال :

فيابرق ليس الكَرْخُ دارى وإنما | رمانى إليه الدهر منذ ليالِ
فهل فيك من ماء المعرة قطرة | تغيث بها ظمآن ليس بسال

وقال أيضاً :

---

(١) المسفوت : القليل البركة .
(٢) الإصليت : الماضى الصقيل .
(٣) يريد بذئاب الإنس اللصوص .
(٤) المسبوت : من السبات ، وهو النعاس .

متى سألتْ بغداد عنى وأهلها ... فإنّىَ عن أهل العواصم سآّلُ

وماء بلادى كان أنجع مشربا ... ولَوأنَّ ماء الكرخ صهباء جريال

على أنه لما أزمع الرحلة من بغداد ، عز عليه فراقها ، وفراق أوِدّائه فيها ، فقال من قصيدة يجيب بها أبا على النهاوندى :

وردنا ماء دجلة خير ماء ... وزرنا أشرف الشجر النخيلا

وزلنا بالغليل وما اشتفينا ... وغاية كل شىء أن يزولا

ونظم فى توديعها قصيدة يقول فيها :

أودعكم يا آل بغداد والحشا ... على زفرات ما يَنِينَ من اللذع

وداعَ ضَنٍ (١) لم يستقلّ وإنما ... تحامل من بعد العثار على ظَلْع

فبئس البديل الشام منكم وأهله ... على أنهم قومى وبينهمُ ربعى

ألا زودونى شربة ولَوَ انّنى ... قدرت إذاً أفنيت دجلة بالجرع

وأنّى لنا من ماء دجلة نُغْبَةٌ ... على الخِمْسِ من بُعد المفاوز والرِّبْعِ

وقال من أخرى :

لقد نصحتنى فى المقام بأرضكم ... رجال ولكن رب نصح مضيع

فلا كان سيرى عنكمُ رأى ملحد ... يقول بيأس من معاد ومرجع

أى لا كان سيرى عنكم ذهاباً بلا إياب . أخرجه مُخْرَجَ الدعاء .

---

(١) يقال ضنى كرضى فهو ضنى وضن : مرض .

فصل فى تلاميذه

قرأ على أبى العلاء ببغداد والمعرة كثيرون ، واشتهر جماعة منهم بالاختصاص به ، والانتساب إليه فى العلم ؛ كأبى المكارم عبد الوارث بن محمد الأبهرى ، وأبى تمام غالب بن عيسى الأنصارى ، والخليل بن عبد الجبار القزوينى ، ومحمد بن أحمد ابن أبى الصقر الأنبارى وغيرهم . وممن روى عنه : القاضى أبو القاسم على ابن القاضى المحسن ابن القاضى التنوخى ، وكان من أقرانه ، أخذ عنه وهو ببغداد ، وصحبه ، واتصلت صحبته بالتبريزى بسبب أبى العلاء . ولد القاضى المذكور ، سنة ٣٦٥ بالبصرة ، كما فى « وفيات الأعيان » لابن خلكان ، أو فى سنة ٣٥٥ كما فى « فوات الوفيات » لابن شاكر ، والأول أصح . وتوفى سنة ٤٤٧ ، قبل وفاة أبى العلاء بنحو سنتين . وكان صدوقا فى حديثه ، وقبلت شهادته عند الحكام فى حداثته ، ولم يزل على ذلك مقبولا إلى آخر عمره ، وتولى قضاء عدة نواح ، منها المدائن وأعمالها ، وأذْرَبِيجَانُ والبَرَدَان وغير ذلك . وكانت فيه دعابة ، يروى أن إسكافا اجتاز بداره وهو نائم ، فصاح شرّاك النعال وأزعجه بصياحه ، فقال لغلامه : اجمع كل نعل فى الدار وأعطها لهذا يصلحها ويشتغل بها ، ثم نام واشتغل الإسكاف بإصلاحها إلى آخر النهار ، فلما كان فى اليوم الثانى فعل كذلك ، ولم يدعه ينام ، فقال للغلام : أدخله ، فلما دخل قال له : أمس أصلحت كل نعل عندنا ، واليوم تصيح على بابنا ، هل بلغك أننا نتصافع بالنعال ونقطعها ؟ يا غلام ، قفاه .

وسمع امرأة تقول لأخرى : كم عمر ابنتك ؟ فقالت : رزقتها يوم صفع

القاضى وضرب بالسياط ، فقال لها : أصار صفعى تاريخاً لك ما وجدت تاريخاً غيره ؟

وممن قرأ على أبى العلاء ، وهو ببغداد : الأديب المشهور بابن فورجة البَرُوجِرْدِىّ ، ذكر ذلك السيوطى . وهو صاحب « الفتح على أبى الفتح » ، و « التجنى على ابن جنى » ، يرد فيهما على ابن جنى فى شرح شعر المتنبى . واختلفوا فى اسمه فقيل محمد بن حمد ، وسماه مجد الدين الشيرازى فى كتابه « البلغة فى أئمة اللغة » : حمد بن محمد ، ومن شعره :

أيها القاتلى بعينيه رفقاً ... إنما يستحق ذا مَنْ قلاكا

أكثر اللائمون فيك عتابى ... أنا واللائمون فيك فداكا

إن لى غَيْرَةً عليك من اسمى ... إنه دائماً يقبل فاكا

قال السيوطى : هذا الشعر يؤيد أن اسمه حَمَد . واختلفوا أيضاً فى اسم جده فورجة ؛ فقال السيوطى : بضم الفاء وسكون الواو وتشديد الراء المهملة وفتح الجيم . وقال ابن شاكر فى « فوات الوفيات » : فوزجة بالفاء المضمومة ، و بعد الواو والزاى جيم مشددة . وفى النسخ خلط فى ميلاده ووفاته .

وأشهر تلاميذ أبى العلاء : أبو زكريا يحيى بن على الخطيب التبريزى ، صاحب المصنفات النفيسة ، كشرح الحماسة والمعلقات وتهذيب ألفاظ ابن السِّكِّيت وغيرها ، ولد سنة ٤٢١ . وتوفى فجأة ببغداد سنة ٥٠٢ . ودخل مصر فى عنفوان شبابه ، ثم استوطن بغداد ، ودرّس الأدب بالنظامية ، وكان إماماً فى اللغة ثقة فيها ، إلا أنه كان مُسْتَهْتَرًا بالشراب . وكان سبب رحلته إلى أبى العلاء أنه تحصل على نسخة من كتاب « التهذيب » للأزهرى فى اللغة فى عدة مجلدات ، وأراد تحقيق ما فيها ، وأَخْذَها عن رجل عالم باللغة ، فدلوه على

أبى العلاء ، فجعل الكتب فى مخلاة ، وحملها على كتفه من تبريز إلى المعرة ، ولم يكن له ما يستأجر به مركوباً ، فنفذ العرق من ظهره إليها ، فأثر فيها . وكانت ببعض الوقوف ببغداد ، إذا رآها من لا يعرف صورة الحال ظن أنها غريقة ، وليس بها سوى عرق التبريزى .

وقال العلامة عبد الهادى نجا الأبيارى من شيوخ هذا العصر المتوفى سنة ١٣٠٥ ، فى كتابه « القصر المبنى على حواشى المغنى » عند كلامه على أبى العلاء المعرى : « ومما يدل على فضله ، أن الخطيب أبا زكريا يحيى التبريزى قرأ الأدب عليه ورحل إليه من تبريز ، وسيدى عبد القادر الجيلانى ، قرأ الأدب على التبريزى هذا ، فالشيخ شيخ شيخ الجيلانى . والله أعلم » .

قلت : والذى قاله الشيخ من قراءة الجيلانى الأدب على التبريزى صحيح ، ذكره ابن شاكر فى ترجمة الجيلانى من « فوات الوفيات » .

فصل فى مبلغ علمه وذكائه

اتفق محبوه ومبغضوه على أنه كان وافر البضاعة من العلم ، غزير المادة فى الأدب ، إماماً فيه ، حاذقا بالنحو والصرف ، نسيج وحده فى الذكاء والفهم وقوة الحافظة . أما اللغة وحفظ شواهدها وتقييد أوابدها فقد كان فيها أعجوبة من العجائب ، وحسبك أنهم إذا عددوا مَنْ رزقوا السعادة فى أشياء ، لم يأت بعدهم من نالها — عدّوا أبا العلاء ممن تفرد بسعة الاطلاع على اللغة . وكلامه الذى أورده فى رسالة الغفران فى بيتى النمر بن تولب ، وتغييره القوافى ، وتنزيلها على سائر حروف المعجم خلا حرف الطاء — يدل على اطلاع كبير ، وتمكن من اللغة والأدب قل أن يتفق نظيره لشخص . وخلاصة ما ذكره أن خلفا الأحمر تذاكر يوما مع أصحابه فى قول النَّمِر :

أَلَمَّ بِصُحْبَتِي وَهُمُ هُجُوعٌ خَيَالٌ طارِقٌ من أمِّ حِصْنِ

لَهَا ما تَشْتَهِي عَسَلاً مُصَفًّى إذا شَاءَتْ وحُوَّارَى بِسَمْنِ

فقال لهم : لو كان موضع أم حِصْن ، أم حَفْص ؛ ما كان يقول فى البيت الثانى ؟ فسكتوا ، فقال : حُوَّارى بِلَمْصِ ، يعنى الفالوذج . والحوارى الدقيق الأبيض وهو اللُّباب ، فغير أبو العلاء قوافى البيتين على حروف المعجم ، وربما أتى فى الحرف بالقافيتين والثلاث ، ولا يتفق هذا إلا لمن رزق حظا وافراً من الاطلاع ، والمسألة مبسوطة فى الرسالة ، فارجع إليها إن شئت لتعلم صحة ما قلناه .

وذكر غير واحد من اللغويين أن أبا العلاء لما دخل بغداد ، اعترضوا عليه فى حَلقة ابن المحسّن ، لقوله :

ويوشَعُ ردّ يُوحَى بعضَ يَوْمٍ   وأنتَ متى سَفَرْتَ رَدَدْتَ يُوحَا

ويُوح ويُوحى بضمهما من أسماء الشمس ، فقالوا له : صحفت إنما هو بوح بالباء الموحدة . واحتجوا عليه بكتاب الألفاظ لابن السِّكِّيت ، فقال لهم : هذه النسخ التى بأيديكم غيّرها شيوخكم ، ولكن أخرجوا ما فى دار العلم من النسخ العتيقة ، فأخرجوها فوجدوها مقيدة كما قال .

واحتج به ياقوت فى معجم البلدان فى تصحيح لفظة الضُّراح ردًّا على من قال إنها بالصاد المهملة ، فقال : ألا ترى إلى أبى العلاء أحمد بن سليمان المعرى ، كيف جمع بين الضُّراح والضَّرِيح إرادة للتجنيس والطباق ، فقال :

لقد بلَغ الضُّراح وساكنيه   نثاكَ وزار من سكن الضَّرِيحا

والنَّثا مقصوراً و بتقديم النون على الثاء : الخبرُ . ومن غريب ما يروونه عنه فى ذلك أنه دخل على الشريف أبى القاسم المُرْتَضَى أخى الشريف الرضى ، وهو ببغداد ، فعَثَرَ برجُل فقال : من هذا الكلب ؟ فقال أبو العلاء : الكلب من لا يعرف للكلب سبعين اسماً . وسمعه المرتَضَى فأدناه واختبره فوجده عالما مُشْبَعًا بالفطنة والذكاء ، فأقبل عليه إقبالا كثيراً . قلت : ومن هذا هرب جلال الدين عبد الرحمن السيوطى فجمع أكثر من ستين اسماً للكلب ، ونظمها فى أرجوزة سمّاها « التبرّى من معرّة المعرّى » ، رأيت أن أوردها هنا إتماماً للفائدة لعزة وجودها ، ثم أُعقبها بشرح يميط اللثام عن الأسماء الواردة فيها ، وأُتبعه بما استدركته على الناظم من أسماء الكلب ، وهى :

لله حَمْدٌ دَائمُ الْوَلِىِّ   ثمَّ صَلَاتُهُ عَلَى النَّبِىِّ

قَدْ نقَلَ الثِّقَاتُ عن أَبِى العَلَا   لما أَتَى للمرتَضَى وَدَخَلَا

قال له شَخْصٌ به قد عَثَرَا   مَن ذلِكَ الكلبُ الَّذِى ماأَبْصَرَا

فَقَالَ فى جَوَابِه قَوْلاً جَلِى | مُعَيِّراً لذلكَ المُجَهِّلِ
الكلب من لم يدر من أسمائه | سَبْعِين مُومِيًا إلى عَلاَئِه
وقد تَتَبَّعْتُ دوَاوِينَ اللُّغَهْ | لعَلَّنى أجمعُ مِن ذَا مَبْلَغَهْ
فَجِئْتُ منها عدداً كَثِيراً | وأرتجى فيما بَقِى تَيْسِيرَا
وقد نَظَمتُ ذاكَ فى هذا الرَّجَزْ | ليَسْتَفِيدَها الذى عنها عَجَزْ
فسَمِّه هُدِيتَ بالتَّبَرِّى | يا صاح من مَعَرَّةَ المَعَرِّى

١ — من ذَلِكَ البَاقِعُ ثم الوَازِعُ | والكَلْبُ والأَبْقَعُ ثم الزارِعُ
٢ — والخَيْطَلُ السُّحَامُ ثمَّ الأَسَدُ | والعُرْبُجُ العَجُوزُ ثم الأَعْقَدُ
٣ — والأَعْنَقُ الدِّرْبَاسُ والعَمَلَّسُ | والقُطْرُبُ الفُرْنِيُّ ثم الفَلْحَسُ
٤ — والثَّغِمُ الطَّلْقُ مع العَوَّاءِ | بالمدِّ والقَصرِ على السَّواءِ
٥ — وعُدَّ من أَسْمائِهِ البصيرُ | وفيه لُغْزٌ قاله خَبِير
٦ — والعُرْبُ قد سَمَّوْهُ قِدْمًا فى النَّفِير | داعى الضَّمِيرِ ثم هاءٍ فى الضَّمِيرْ
٧ — وهكذا سَمَّوْهُ دَاعِىَ الكَرَمْ | مشيِّد الذكر متمم النعم
٨ — وثَمْثَمٌ وكالِبٌ وهِبْلَعُ | ومنذرٌ وأهْوَجٌ وهِجْرَعُ
٩ — ثم كُسَيْبٌ عَلَمُ المذكرِ | مِنْهُ عَنِ الهمزةِ واللاَّمِ عَرِى
١٠ — والقَلَطِىُّ والسَّلُوقِى نِسْبَهْ | كذا النَّصِيبِىُّ بذاكَ أَشْبَهْ
١١ — والمُسْتَطِيرُ هائِج الكلاب | كَذَا رواهُ صاحبُ العُبَابِ
١٢ — والدِّرْصُ والجِرْوُ مُثَلَّثُ الفَا | لولد الكلب أسَامٍ تُلْفَى
١٣ — والسِّمْعُ فيما قالَه الصُّولِىُّ | وهو أَبُو خالدٍ المَكْنِىُّ
١٤ — ونقلوا أَلزَّاهِدُونَ للكلابْ | وكَلْبَةٌ قيل لها أيضًا كَسابْ
١٥ — مِثلُ قَطامِ عَلَمًا مَبْنِيًّا | وكَسْبَةٌ كَذَاكَ نَقْلاً رِيًّا

١٦ — وخُذْ لَهَا العَوْلَقَ والمُعَاوِيَهْ ولَعْوَةً وكُنْ لِذَاكَ رَاوِيَهْ
١٧ — وَوَلَدَ الكلبِ من الذِّئْبَة سَمْ عُسْبُورَةً وإن تَزِلْ هَا لا تُلَمْ
١٨ — وألْحقوا بذلِكَ الخَيْهَفعَى وإن تَمُدَّ فهو جاء سَمْعَا
١٩ — وَوَلَدُ الكَلْبَةِ من ذِئْبٍ سُمِى وثعلبٍ فيما رَوَوْا بالدَّيْسَمِ
٢٠ — ثم كلابُ الماءِ بالهَرَا كلَّهْ تدعى وقس فرداً على ما شا كله
٢١ — كذاكَ كلبُ الماءِ يُدعى القُنْدُسَا فيما رَوَى ابنُ دِحيةٍ قد انتَسَى
٢٢ — وكلبةُ الماءِ هى القُضَاعَهْ جميعُ ذاكَ أثبتوا سَمَاعَهْ
٢٣ — وعَدَّدُوا من جِنْسِهِ ابنَ آوَى ومن سُمَاه دَألٌ قَدْ سَاوَى
ودُئِلٌ ودُؤَلٌ والدَّألانْ وافتحْ وضُمَّ مُعْجِمًا للذألان
كذَلِكَ العِلوْضُ ثم النَّوْفَلُ واللَّعْوض الشُّرْحوبُ فيما نَقَلوا
والوَعُّ والعِلَّوْشُ ثم الوَعْوَعُ والشَّغْبَرُ الوَأْوَاء فيما يُسْمَعُ
هذا الذى من كُتُبٍ جَمَعْتُهُ وَما بَدَا مِن بَعْدِ ذا أَلْحَقْتُهُ
والحمـــدُ لله لهَا خِتَامُ ثُمَّ على نَبِيِّـه السَّلاَمُ

تمت الأرجوزة . ولنشرع فى شرحها معتمدين على ما دوّنوه فى كتب اللغة والأمثال والحيوان ، وقد وضعنا أرقاماً للأبيات يرجع إليها فى هذا الشرح ، فنقول :

(١) الباقِع والأبْقَعُ من الكلاب الذى خالط بياضه لونٌ آخر ، والبقَع فى الطير والكلاب بمنزلة البَلَق فى الدواب ، وقول الأَخْطَل :

كلوا الضَّبَّ وابنَ العَيْرِ والبَاقِعَ الذى يَبيتُ يَعُسُّ اللَّيْلَ بين المقابِرِ

قيل أراد الكلب ، وقيل غير ذلك ، والعرب تقول : لا خير فى بقْع الكلاب . وترى التَّبْقِيعَ هُجْنَةً فيها ، وخير الكلاب عندها ما كان لونه يذهب

إلى لون الأسد ، وخير كلاب الصيد البيض . وفى المخصص : البَقَعُ بياض فى صدر الكلب الأسود ، وهى البُقْعَةُ ، وكلبٌ أَبْقَع والجمع بُقْعان . والوازع الكلب لأنه يَزَعُ الذِّئْبَ عن الغنم أى يكفّه ، ويقال له ابن وازع أيضاً . والكلب كل سَبُعٍ عقور ، ثم غلب على هذا النابح ، كما فى القاموس . وقال شارحه : قال شيخنا : بل صار حقيقة لغوية فيه لا تحتمل غيره ، ولذلك قال الجوهرى وغيره : هو معروف ، ولم يحتاجوا لتعريفه لشهرته . انتهى . وهو من الأسماء التى تَسَمَّتْ بها العرب ؛ فمن مشهوريهم فى ذلك : كُلَيْبُ بن ربيعة من بنى تَغْلِب بن وائل ، وهو الذى ضربوا به المثل ، فقالوا : أَعَزُّ من كليب وائل ، وقامت الحرب بسببه بين بَكرٍ وتغلِب . وكان اسمه فى الأصل وائلا ؛ وإنما سموه كليباً ، لأنه بلغ من عزه أنه كان يحمى الكلأ فلا يقرب حماه ، ويجير الصيد فلا يُهاج . وكان إذا مر بروضة أعجبته ، أو غدير ارتضاه ، كنَّع كُلَيبًا ثم رمى به هناك ، فحيث بلغ عواؤه كان حِمًى لا يُرعى ، فلما حمى كليبه المرمىُّ الكَلَأَ قيل : أعز من كليب وائل . ثم غلب هذا الاسم عليه حتى ظنُّوه اسمه ؛ كذا فى مجمع الأمثال للميدانى . وقوله : كنَّع هو بمعنى بضَّع وكوَّع أى ضربه فصيره مُعَوَّج الأكواع . ومنهم كليب بن حبشية بن سَلُول فى خُزَاعة . وكلب بن عمرو بن لُؤَى فى بَجِيلَةَ . وبنو كلب ، وبنو أكلب ، وبنو كلبة وبنو كلاب ، قبائل معروفة ، منها فى قريش كلاب بن مرة ، وفى هَوَازِن كلاب بن ربيعة بن صَعْصَعَة . أما ذو الكلب فهو عَمْرُو بن العَجْلان أحد شعراء هذيل ، لقب به لأنه كان له كلب لا يفارقه . وعائد الكلب هو عبد الله بن مُصْعَب ، كان والياً للرشيد على المدينة ، لُقِّب بذلك لقوله :

مالى مَرِضت فلمْ يَعُدْنى عائدٌ   منكم ويمرض كلبكم فأعود

وهو أحد من نطقوا فى الشعر بكلمات غلبت شهرتها عليهم ، فلُقِّبوا بها ،

وربما جمعتُ ما وقفت عليه من ذلك فى رسالة مستقلة . والسبب الذى دعا العرب إلى تسمية أبنائها بمثل هـذه الأسماء المستكرهة كالـكلب والذئب والحجر والصخر ، هو ما ذكره الراغب وغيره أن أعرابيا سئل : لِمَ سمّوْا أبناءهم بالأسماء القبيحة ، وعبيدهم بالحسنة ؟ فقال : لأن أبناءهم لأعدائهم ، وعبيدهم لأنفسهم . قلت : وقد فصّل الإمام شمس الدين محمد بن أبى بكر المشهور بابن قيم الجوزيّة مذاهب العرب فى تسمية أبنائها تفصيلا ترتاح إليـه النفس و يثلج به الفؤاد ، فقال فى آخر كتابه « مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة » عند الـكلام على الفأل والطِّيَرَة ، ما نصه : وكانت لهم مذاهب فى تسمية أولادهم : فمنهم من سموه بأسماء تفاؤلا بالظفر على أعدائهم ، نحو غالب وغلاب ومالك وظالم وعارم ومنازل ومقاتل ومعارك ومسهر ومؤرق ومصبح وطارق ، ومنهم من تفاءل بالسلام كتسميتهم بسالم وثابت ونحوه ، ومنهم من تفاءل بنيل الحظوظ والسعادة كسعد وسعيد وأسعد ومسعود وسعدى وغانم ونحو ذلك ، ومنهم من قصد التسمية بأسماء السباع ترهيباً لأعدائهم نحو أسد وليث وذئب وضرغام وشبل ونحوها ، ومنهم من قصد التسمية بما غلظ وخشن من الأجسام تفاؤلا بالقوة كحجر وصخر وفهر وجندل ، ومنهم من كان يخرج من منزله وامرأته تمخض ، فيسمى ما تلده باسم أول ما يلقاه ، كائناً ما كان ، من سبع أو ثعلب أو ضب أو كلب أوظبى أو حشيش أو غيره . انتهى المقصود منه .

وأمّا ماسّمى بالـكلب أو أضيف إليه من البقاع والسيوف والأنهار وغيرها ، فقـد تركنا ذكره طلبا للاختصار ، ونقتصر منهـا على قرية بحلب تسمّى جُبَّ الـكلب ، تعد من العجائب لاشتهارها ببئر فيها إذا شرب منها المـكلوب قبل أن يأتى عليه أربعون يوماً برأ . كذا ذكر صاحب القاموس فى مادة ج ب ب .

وقال ياقوت فى معجمه : حدثنى مالك هذه القرية ابن الإسكافى ، وسألته عما يحكى عن هذا الجب وأن الذى نهشه الكلب الكلِب إذا شرب منه برأ ، فقال : هذا صحيح لا شك فيه . قال : وقد جاءنا منذ شهور ثلاث أنفس مكلوبين يسألون عن القرية ، فدُلُّوا عليها ، فلما حصلوا فى صحرائها اضطرب أحدهم وجعل يقول لمن معه : اربطونى لئلا يصل إلى أحدكم منى أذى ، وذلك أنه كان قد تجاوز أربعين يوماً منذ نُهش ، فرُبط ، فلما وصل إلى الجُب وشرب من مائه مات . وأما الآخران فلم يكونا بلغا أربعين يوماً ، فشربا من ماء الجُبّ فبرأ . قال : وهذه عادته ، إذا تجاوز المنهوش أربعين يوماً لم تكن فيه حيلة . إلى أن قال : وهذه البئر هى بئر القرية التى يشرب منها أهلها . انتهى . قلت : ولا أدرى ما فعل الله بالقرية والبئر ، وإنما خصصتها بالذكر دون غيرها تنبيهاً لأطباء هذا العصر ، لعلهم يتوفقون للبحث والتنقيب عنها ، حتى إذا وجدوها امتحنوا ماءها ، فربما كان فيه من الأملاح أو غيرها ما من خاصيته شفاء هذا المرض ، وعسى ألا تأخذهم حميّة جاهليّة فيضربوا بهذا القول عرض الحائط بغير حجة سوى ما اعتادوه من احتقار أقوال علمائنا المتقدمين ، فلولا تجربة هذا الماء وظهور نفعه فى المصابين قبل أن يجاوزوا أربعين يوماً ، أى قبل استفحال الداء وتمكنه منهم ، لما استفاض خبره ، ونقله هؤلاء الأعلام ، ولا فائدة لمثلهم فى التواطؤ على الكذب فى مثله .

والزَّارِع بتقديم الزاى على الراء الكلب ، وفى القاموس : زارع اسم كلب ، ومنه قيل للكلاب : أولاد زارع ، وفيه أيضاً فى مادة ذرع بالذال المعجمة : أولاد ذَارع ، وذِراع بالكسر : الكلاب . وفى المخصص : قال على بن حمزة : ابن زارع وابن ذارع وابن وازع : الكلب ، وربما سمّى وازعا أيضا . انتهى .

الخَيْطَل بفتح الخاء المعجمة وسكون الياء المثناة التحتية ، وفتح الطاء المهملة وبعدها لام : الكلب . والسُّحام بضم السين المهملة ، وبعدها حاء مهملة ، مأخوذ من السُّحْمَة وهى السَّوَاد ، والذى يؤخذ من نصوص كتب اللغة أنه عَلَمٌ عَلَى كلْب مُعَيّن لا اسم جنس للكلاب . قال الجوهرى : سُحَام اسم كلب ، واستشهد بقول لبيد :

فَتَقَصَّدَتْ منها كَسابِ فضُرِّجَتْ بدَمٍ وغُودِرَ فى المَكَرِّ سُحَامُها

ووافقه فى ذلك شُرَّاحُ المعلقات ، وهو ظاهر من سياق البيت . وفى لسان العرب : سُحَيْمٌ وسُحَامٌ من أسماء الكلاب ، ثم أنشد بيت لبيد . وذهب صاحب القاموس إلى أن صوابه بالمعجمة قال : وَوَهِمَ الجوهرى . قلت : لا وَهَم ؛ فقد ذكر بعض شراح المعلقات أنه يروى بهما ، ووافقه الميدانى فى مجمع الأمثال عند تفسير قولهم (هَنِيئاً لسُحَام ما أكل) فإنه أورد البيت ثم قال : ويروى سُخَامُها بالخاء . وهذا المثل يضرب فى الشماتة بهلاك العدو . وقول الزَّوزَنىّ فى شرح المعلقات إنه اسم كلبة ، يخالف ما أجمعوا عليه من أنه اسم كلب ذكرٍ . والله أعلم . والأسد لم أعثر فى كتب اللغة على أنه يطلق على الكلب ، وإنما الذى فيها أن الكلب من أسماء الأسد . والعُرْبُجُ بضم العين المهملة ، وسكون الراء وضم الباء الموحدة ، وبعدها جيم : الكلب الضخم ، كما فى القاموس ، أو كلب الصيد ، كما فى اللسان . والعَجُوز بفتح العين المهملة وضم الجيم وبعدهما واو ساكنة وزاى : من أسماء الكلب . والأعْقَد بالعين المهملة ، والقاف ، والدال المهملة : الكلب ، لانعقاد ذَنَبه ، جعلوه اسما له معروفا ، قال جرير :

تبولُ على القَتَاد بناتُ تيْمٍ مع العُقْدِ النَّوابحِ فى الدِّيارِ

قالوا : ليس شىء أحب إلى الكلب من أن يبول على قتادة أو على شجيرة صغيرة غيرها . وروى الجاحظ فى كتاب « الحيوان » لمساور بن هند يهجو قوماً بأكل الكلاب :

إذا أَسَدِيَّةٌ وَلَدَتْ غُلاماً فبشِّرها بلُؤْمٍ فى الغُلام
يُخَرِّسُها نســاء بنى دُبَيْر بأخبَثِ ما يكون من الطّعامِ
ترى أَظْفَارَ أَعْقَدَ مُلْقَيات بَرَاثِنُها عَلَى وَضَمِ الثُّمامِ

يُخَرِّسها أى يصنعن لها الخُرسة وهى طعام النُّفَساء ، ودُبَيْر بالتصغير أبو قبيلة من أسد ، والوَضَم بالتحريك ما وقيت به اللحم عن الأرض من خشب أو حصير ، والثُّمام نبت ضعيف لا يطول كانوا يفرشونه تحت الأساقى ونحوها ، وربما حَشَوا به وسدُّوا خَصَاصَ البيوت .

(٣) الأَعْنَقُ بالعين المهملة والنون والقاف : الكلب فى عنقه بياض ، ويقال للقلادة التى توضع فى عنق الكلب : مِعْنَقَة ، وقد أَعْنَقَهُ إذا قلده إياها ، ويقال لها أيضاً الجِدَّة بالكسر ، وكذلك الأُرْبَة بالضم : قلادة الكلب التى يقاد بها .
والدِّرْبَاس بكسر الدال المهملة وسكون الراء وبعدها باء موحدة وألف وسين مهملة : الكلب العقور . والعَمَلَّس بفتح العين المهملة والميم واللام المشددة ، وبعدها سين مهملة : كلب الصيد كما فى القاموس ، أو الكلب الخبيث كما فى اللسان . على أنه أنشد بعد ذلك قول الطِّرِمَّاح يصف كلاب الصيد :

يُوَزِّعُ بالأمراسِ كل عَمَلَّس من المطْعِمَاتِ الصَّيْدِ غيرِ الشّواحِنِ

وقال فى تفسير يوزع : يكف ، ورواه فى مادة ودع : يودّع ، ثم قال : أى يقلدها وَدَعَ الأمراس .
والقُطْرُبُ بضم القاف وسكون الطاء المهملة وضم الراء ، وبعدها باء موحدة : الصغير من الكلاب . وفى المخصص : القَطْرَبُ (أى بفتح القاف والراء) صغار الكلاب ، زعموا أن الواحد قُطْرُب ، وليس هو جمع بل اسم للجمع . انتهى ملخصاً .

والفُرْنِيّ بضم الفاء وسكون الراء وبعدها نون وياء مشددة : الكلب الضخم ، قال العجّاج :

وطَاحَ فى المعرَكَةِ الفُرْنىّ

قال ابن بَرِّىّ : أراد الضخم من الكلاب ، وقال غيره : إنما أراد الرجل الغليظ الضخم .

والفَلْحَسُ بفتح الفاء وسكون اللام وفتح الحاء المهملة وبعدها سين مهملة : الكلب . قال الجاحظ فى كتاب الحيوان : ويقال للكلب فَلْحَس ، وهو من صفات الحرص والإلحاح ، ويقال : فلان أسأل من فَلْحَس . وفَلحس رجل من بنى شيبان كان حريصاً رغيباً ومُلحفاً مُلِحّاً ، وكل طُفَيْلِيّ فهو عندهم فلحس . انتهى . قلت : وإنما سمّوا الكلب بذلك لأنه موصوف عندهم بالحرص والإلحاح ، حتى قالوا فى أمثالهم : (أَلَحُّ من كلْب) .

(٤) الثّغِم : بفتح الثاء المثلثة وكسر الغين المعجمة وبعدهما ميم : الكلب الضارى . والطَّلْقُ بفتح الطاء المهملة وسكون اللام وبعدهما قاف : كلب الصيد . والعوّاء بالعين المهملة وبالمد ، ويقال أيضا بالقصر : الكلب يعوى كثيرا . وللوزير أبى الوليد إسماعيل بن حجاج الأعلم الأشبيلى فى فتى عضه كلب فى خدّه :

وأَغيدَ وضّاح المبـاسم باسم ... إذا قامر الأرواح ناظِرُه قمَرْ
تعمّدَ كلبٌ عَضّ وَجْنَتِه التى ... هى الورد إيناعا وأبقى بها أثَرْ
فقلت لشُهْب الأُفق كيف صُماتكم ... وقد أثّر العوّاء فى صفحة القمرْ

هكذا رواها صاحب « نفح الطيب » فى موضع من كتابه ، منسوبة للوزير المذكور ، وأعادها فى موضع آخر منسوبة لأبى القاسم بن هشام ، وروى المحاسن بدل المباسم ، والأسياف بدل الأرواح . والله أعلم .

والصُّمات بالضم والصَّمت والصُّموت : السكوت ، يشير بذلك إلى قولهم : لا يضر القمر نبح الكلاب ، وأصل المثل « لا يضر السحاب نبح الكلاب » لأن كلاب البادية تتأذى بالمطر لمبيتها أبداً تحت السماء ، فإذا أبصرت غيما نبحته ، لأنها قد عرفت ما تلقى من مثله . وتنبح أيضاً القمر ، لأنه إذا طلع من المشرق يكون كقطعة غيم ، ومنه قول بعضهم :

يا جابرَ بن عديٍّ أنت معْ زُفَرٍ كالكلب ينبح من بُعدٍ على القمر

(٥) البَصير بفتح البـاء الموحدة ، وكسر الصاد المهملة ، و بعدهما ياء ساكنة وراء مهملة ، لم يذكره القاموس ، وأنشد صاحب اللسان لتوبة :

وأُشرِفُ بالقُورِ اليفَاعِ لَعلَّنِي أرَى نَارَ لَيْلَى أوْ يَرانِي بَصِيرُها

ثم قال نقلا عن ابن سيده : يعنى كلبها ، لأن الكلب من أحدّ العيون بصرا . انتهى .

قلت : وقد جاء فى أمثالهم « أبصر من كلب » . وقول الناظم : « وفيه لغز قاله خبير » يريد بذلك قول الحريرى فى المقامة الثانية والثلاثين فى فتاوى فقيه العرب « قال : أيُسْتَبَاحُ ماءُ الضرير ؟ قال : نعم ، ويُجْتَنَبُ ماءُ البصير » فالمتبادر أن الضرير هو الأعمى وهو لا يستباح ماؤه الذى يملكه بدون علمه ، ومراد الشيخ به : حرف الوادى ، وكذلك المتبادر فى البصير أنه ضد الأعمى ، وماؤه إذا أخذ للوضوء باطلاعه لا يجتنب ، وإنما أراد به الكلب . هكذا فسره الحريرى نفسه فى المقامة .

(٦) هكذا رواية البيت فى نسختين من الأصل ، ولم يظهر لى وجه تسمية العرب للكلب فى نفيرهم بداعى الضمير أو داعى الضميرة كما يفهْم من سياقه ، فلعل الكلام محرف ، وقد دخل البيت التذييل ، وهو من علل الزيادة ، ودخوله فى الرجز مغتفر للمولدين .

(٧) قوله : داعى الكرم ، إنما سموه بذلك على مايظهر ، لأن نباح الكلب يبشرهم بقدوم الضيف ، ويرشده إلى منزلهم ، فيكون سبباً للكرم وداعياً إليه . وقد كان الرجل من العرب إذا ضل وتحير فى الليل ، فلم يدر أين البيوت ، أَخرَج صوته على مثل النباح ، فتسمعه الكلاب وتظنه كلباً ، فتنبح ، فيستدل بنباحها ويهتدى إلى المكان . وهو الذى تسميه العرب بالمستَنبِح . وأنشد أبو على القالى فى أماليه :

ومُبدٍ لىَ الشَّحْناَءَ بينى وبينَه ... دعوتُ وقد طال السرى فدعانى

يعنى كلباً ، ويريد نبحت له فنبح فاهتديت به ؛ فكأنه دعانى بنباحه .

وأنشد أبو على أيضاً :

ومُستَنبِحٍ بات الصَّدَى يَستَتيهُهُ ... فتاهَ وجَوْزُ الليل مضطرب الكِسْرِ

رَفَعتُ له ناراً ثَقُوباً زنادها ... تُليحُ إلى السَّارى هلمَّ إلى قِدْرِى

فلما أَتى والبؤس رادِف رَحْـله ... تلقيتُه منى بوَجْه امرئٍ بَشْرِ

فقلت له أهلٌ بأهلٍ فلم يَجُزْ ... بك الليلُ إلا للجميل من الأمرِ

وكادت تطير الشَّوْلُ عِرْفَانَ صَوْتِهِ ... ولم تُمسِ إلا وهى خائفة العَقْرِ

انتهى . وقد اتفق أكثر علماء الأدب ، كابن رشيق وأضرابه ، على أن أهجى بيت قالته العرب ، قول الأخطل فى بنى يربوع قوم جرير :

قوم إذا استَنبَح الأضيافُ كلبَهُمُ ... قالوا لأُمِّهِمُ بولى على النار

وقال آخر يوصى بالكلب ، وأنشدها الجرجانى فى كناياته ، وقال ابن المرزبان : إنهما لأعرابى قالهما لأكبر ولده فى كلبه :

أوصيك خيراً به فإنَّ له ... خلائقاً لا أزال أَحْمَدُها

يدل ضيفى علىَّ فى غسق الليـل إذا النار نام مُوقدها

وفى معنى استَنْبح أيضاً : كلَبَ الرجلُ يكْلِبُ من باب ضرب ، واستكاب ، أنشد ابن سيده على الأول :

ودَاعٍ دعا بعد ما أقفرت   عليه البلاد ولم يكْلِبِ

وأنشد صاحب اللسان على الثانى :

ونبح الكلاب لمُسْتَكلِبِ   انتهى .

قلت : وكما يكون الكلب سببا لإيصال الخير وتشييد الذكر ، فقد يكون أيضاً سببا للشر ، كما جنت على أهلها برَاقِشُ ، وهى كلبة كانت لقوم من العرب ، فأغير عليهم ، فهربوا وهى معهم ، فاستدل العدو عليهم بنباحها ، فهجموا عليهم واصطلموهم ، فقالوا (على أهلِها تجْني بَرَاقِشُ) هكذا رواه الميدانى فى مجمع الأمثال ، ورواه ابن سيده فى المخصّص، والجاحظ فى كتاب الحيوان: (على أهلها دلّت براقش).

على أن نباح الكلب على الضيف و إن جعلوه من دواعى الكرم ، لما سبق ذكره ؛ فقد رأيناهم يعدونه فى نفسه من خصاله المذمومة ، لأنه لا ينبح على القادم إلا كراهة منه فى الغريب. ومن أحسن ما يروى فى هذا الصدد نادرة أبى عبدالله محمد بن مرزوق عالم المغرب مع أهل تونس لمّا ورد عليهم وسألوه قراءة درس فى التفسير بحضرة السلطان ، فأجابهم إلى ذلك ، وعينوا له محل البدء ، فطالع فيه ، فلما حضروا قرأ القارئ غير ذلك ، وهو قوله تعالى : « فمثله كمثل الكلب .. الآية » وأرادوا بذلك إفحام الشيخ والتعريض به ، فوجم هنيهة ثم تفجر بينابيع العلم ، إلى أن أجرى ذكر ما فى الكلب من الخصال المحمودة ، وساقها أحسن مساق ، وأنشد عليها الشواهد ، وجلب الحكايات ، حتى عدَّ من ذلك جملة ؛ ثم قال فى آخرها : فهذا ما حضر من محمود أفعال الكلب وخصاله ، غير أن فيه خَصْلة ذميمة ، وهى إنكاره للضيف . انتهى .

وعندى أن ذمهم له بإنكاره الضيف لم يقصدوا به إلا معنى من المعانى الشعرية ، وإلا فأى فائدة من الكلب أعظم من حراسته أهله ، ودفعه عنهم ؟ !

(٨) الثَّمْثَمُ بفتح الثاءين المثلثتين وسكون الميم الأولى : كلب الصيد . والكالب ليس اسما للكلب ، بل هو والكليب كأمير : جماعة الكلاب ، وفى اللسان : الكليب كالعبيد ، جمعٌ عزيز . وأنشد فى وصف مفازة :

كأنَّ تجَاوُبَ أَصْدَائِهَا مُكَاءُ المكَلِّبِ يَدْعُو الكَلِيبا

والمكلِّب بكسر اللام المشددة : معلِّم كلاب الصيد ، ومُكاؤه : صفيره . وقال شارح القاموس نقلا عن شيخه : إنهم اختلفوا فى الكليب هل هو جمع أو اسم جمع ، وصححوا أنه إذا ذكِّر كان اسم جمع كالحجيج ، وإذا أنث كان جمعاً كالعبيد . انتهى .

وهِبْلَع كدرهم ؛ أى بكسر الهاء وسكون الباء الموحدة وفتح اللام وبعدها عين مهملة : الكلب السَّلُوقى ، واسم كلب بعينه . ومُنذِر كأنه من إنذار أهله بالطارق . وأَهْوَج لم يذكروه ، وذكره الجاحظ على أنه الكلب فى بيت أنشده فى كتاب الحيوان . والهِجْرَع بكسر الهاء وسكون الجيم وفتح الراء وبعدها عين مهملة : الكلب السَّلوقى الخفيف .

(٩) كُسَيْبٌ مصغَّراً : اسم كلب ، كما فى المخصص ، وفى اللسان : كُسَيْبٌ من أسماء الكلاب ، ومراده من الأعلام التى تسمى بها الكلاب ؛ كما وضحه الناظم فى البيت . وقد خصوه بذكور الكلاب كما خصوا كَسَابِ وكَسْبَةَ بإناثها . وسيأتى قول الناظم فيهما ، وإنما كانوا يسمون كلابهم بذلك تفاؤلا بالكسب والاكتساب .

(١٠) القَلَطِىّ بفتح القاف واللام وكسر الطاء المهملة وبعدها ياء مشددة ، والقُلَاط كغراب ، والقِلِيط بكسر القاف واللام ؛ كل ذلك القصير المجتمع من

الناس والسنانير والكلاب ، وقد جاء به أبو الشمقمق فى قوله من أبيات :

جِئْتُه زائراً فأدْنَى مكانى ... وتَلَقَّى بمَرْحَبٍ وَتَحِيَّهْ

لا كَمِثْلِ الأَصَمِّ حارِثَةِ اللُّؤْ ... مِ شبيه الـكُلَيْبَةِ القَلَطِيَّهْ

وفى حياة الحيوان أن القَلَطِيَّ نوع من الكلاب السَّلُوقية صغير الجِرْم قصير القوائم ، ويقال له : الصِّينِيّ .

والسَّلوقى بفتح السين المهملة ، نسبة إلى سَلوق ، وهى أرض أو قرية باليمن ، وذهب الجوهرى إلى أنها مدينة بالشام ، قال القُطَامِيّ :

مَعَهُم ضَوَارٍ مِنْ سَلوقَ كأنَّها ... حُصُنٌ تَجُولُ تُجَرِّرُ الأَرْسَانَا

وفى معجم ياقوت نقلا عن ابن الحائك ، وهو يذكر اليمن : سلوق كانت مدينة عظيمة بأرض الجديد ، واسم بقعتها اليوم حسل الزينة . إلى أن قال : وإليها كانت العرب تنسب الدروع السَّلُوقِية والكلاب السلوقية . انتهى . وقيل : سلوق بلد بطرف أرمينية يعرف ببلد اللَّان ، وتنسب إليه الكلاب . وقيل : بل هى منسوبة إلى سَلَقْيَة بفتحتين فسكون وياء مفتوحة مخففة : بلد بالروم ، فلما نسبوا إليه قالوا : سَلوقِيّ ، فغيروا النسب . وجاء فى اللسان : سَلوق أرض باليمن ، وفى التهذيب : قرية باليمن ، وهى بالرومية : سَلَقْيَة . انتهى . فسلقية على هذا فى اللغة الرومية هى سلوق التى باليمن . والله أعلم . أما علماء الحيوان من الأفرنج اليوم ، فيقسمون السلوقى إلى عدة أنواع ، لكل صقع نوع ؛ واسمه فى لغة الفرنسيس لفريه (Lévrier) ويذهبون إلى أن أنواعه تفرعت من جنس أصليّ كان فى سهول غربى آسيا ، ولهم فى تعديدها كلام كثير ليس هذا موضعه . ورأيت فى المعجم الكبير للاروسَ أن السلوقى (Sloughi) الحقيقى يوجد فى الأقاليم الهندية الغربية ، وهو أَصْهَبُ اللون .

والنَّصِيبى بفتح النون وكسر الصاد المهملة ، نسبة إلى نَصِيبين ، ويقال فى النسبة إليها : نَصِيبِينِىّ أيضاً . وهى ثلاثة مواضع : مدينة من بلاد الجزيرة ، وقرية من قرى حلب ، ومدينة بشاطئ الفرات ، تعرف بنصيبين الروم . ولم أر أحداً نص على اشتهار واحدة منها بنوع من الكلاب ينسب إليها ؛ فإما أن يكون الناظم رآه فى كتاب لم نطّلع عليه ، أو يكون أراد الصِّينِىَّ ، فحرّفه الناسخ ، وعلى هذا يكون الشطر (كذلك الصِّينِى بذاك أَشْبَه) أو نحو ذلك . وقد مر بك عن الدميرى فى « حياة الحيوان » أن القلطى يقال له : الصينى . فقول الناظم (بذاك أشبه) بعد ذكره القلطىّ ، يرجح أنه أراد الصينى . على أن كثيراً من أئمة اللغة لم يذكروا الصينى إلا فى معرِض ردِّه وتغليط قائله ؛ فقالوا : كَلْبٌ زِئْنِىٌّ : قصيرٌ ، ولا تقل صينى . ورأيت الجاحظ جمع بينهما فى كتاب الحيوان فقال : (والكلب الزِّئنىُّ الصينى يُسرَج على رأسه ساعات كثيرة من الليل ، فلا يتحرك . وقد كان فى بنى ضبة كلب زئنى صينى يُسرَج على رأسه ، فلا ينبض فيه نابض ، ويدعونه باسمه ، ويُرْمى إليه ببَضعة اللحم ، والمسرجة على رأسه ، فلا يميل ولا يتحرك ، حتى يكون القوم هم الذين يأخذون المصباح من رأسه ؛ فإذا أزيل عن رأسه وثب على اللحم فأكله . دُرِّبَ فَدَرِبَ ، وثُقِّفَ فَثَقِفَ ، وأُدِّبَ فَقَبِلَ) . وعلى كل حال فالصينى ذكروه ، وإن خطّأ بعضهم قائله ، بخلاف النَّصِيبى ، فأنا لم نر أحداً ذكره فيما نعلم .

(١١) المستطير بالسين والطاء والراء المهملة جميعها : الكلب الهائج ؛ أى الطالب السِّفاد . وأراد الناظم بالعباب : كتاب العباب الزاخر فى اللغة ، وهو كتاب كبير يقع فى عشرين مجلداً للإمام حسن بن محمد الصَّاغَانِىّ أو الصغانىّ المتوفى سنة ٦٥٠ ، بلغ فيه إلى الميم ، ووقف فى مادة بكم ، ومات قبل إتمامه ؛ ولهذا قيل :

إن الصَّغَانِيَّ الذى حازَ العُلومَ والْحِكَمْ
كَانَ قُصَارَى أَمْرِهِ أن انتهى إلى بَكَمْ

(١٢) الدِّرْصُ بتثليث الدال المهملة وسكون الراء و بعدهما صاد مهملة : ولد الكلب ، وكذلك الجِرْوُ مثلّث الأول .

(١٣) السِّمْعُ بكسر السين المهملة وسكون الميم و بعدها عين مهملة ، أورده الناظم على أنه من أسماء ولد الكلب ، نقلا عن الصُّولِيّ. والذى فى مادة (س م ع) من كتب اللغة أنه سَبُعٌ مركّب ، وهو ولد الذئب من الضَّبُع ، ومن أمثالهم : (أَسْمَعُ من سِمْع) ومن السِّمْع : الأزَلّ . قال :

تراه حديدَ الطَّرْفِ أبْلَجَ واضِحًا أغرَّ طويلَ الباعِ أسْمَعَ من سِمْعِ

ثم رأيت فى مادة (خ ى ه ف ع) من اللسان أنه ولد الكلبة من الذئب نقلا عن الأزهرى ، ورأيت أيضاً فى جزء للناظم سماه « التهذيب فى أسماء الذيب » أن السِّمع بين الذئب والكلب . وأبو خالد : من كُنَى الكلب ، ذكره الناظم فى المزهر ، وقال أبو السعادات المبارك بن الأثير فى المرصّع : أبو خالد هو الكلب ، من قولك : أخلد الرجل بصاحبه إذا لزمه ، وأخلد بالمكان إذا أقام به . وهو كنية الثعلب أيضاً . انتهى .

قلت : وللكلب كنى أخرى سنذْكرها فيما استدركناه على الناظم بعد تمام الشرح .

(١٤و١٥) فى نسختين من الأصل بإسقاط لفظة (أيضاً) من عجز البيت ، فيصير الشطر : (وكلبة قيل لها كَسَاب) ولا بد فى هذه الحالة من كسر باء كسابِ للوزن ، وهو مع هذا لا يلتئم مع الصدر ؛ لأن العروض دخلتها إحدى علل الزيادة وهى التذييل ، ودخوله فى الرجز مغتفر للمولدين . والبيت مُصَرّع ، ولا بد فى

التصريع من مطابقة الضرب للعروض فى الوزن والقافية ؛ فلهذا اضطررنا لزيادة (أيضا) مع التنبيه عليها فى الشرح ليَلْتَئِمَ الشطران فى الوزن . ويمكن أن يقال بإسقاطها :

وَنَقَلُوا الزُّهَّادَ لِلْكِلَابِ   وكلبَةٌ قيل لها كَسَابِ

إلا أن احتمال سقوط لفظة من قلم الناسخ سهوا أقرب من تغيير (الزاهدون) بالزّهّاد . أما وصف الكلب بالزهد ، فقد وقفت فى مجموع على رسالة فى خصال الكلب المحمودة ، تنسب للحسن البصرى ، جاء فيها مانصه : (الخَصْلة الرابعة ، أنه إذا مات لا يكون له ميراث ، وذلك من أخلاق الزاهدين) وكنت فى ريب من أمر هذه الرسالة ، حتى رأيتها فى نفح الطيب مسوقة فى ترجمة أبى عبد الله الراعى الغرْناطِى ، وذكر أنه أوردها فى باب العَلَم من شرحه على الألفية، منسوبة للحسن البصرى . والله أعلم .

ومن أمثالهم فى ذلك : (أَشْكَرُ من كلب) إلا أن الأكثرين على وصفه بالحرص والشره ، ومن أمثالهم فيه (أَحْرَصُ من كلب على جيفة) ومن كلب على عَرْقٍ ، والعَرْق بالفتح: العظم عليه اللحم، أو الذى أُكل لحمه . وقالوا أيضاً (أَلأَمُ من كلب على عرق) و (أَنْهَمُ من كلب) . وكَسَابِ كقَطَام مبنيا على الكسر : الذئب ، كما فى القاموس ، وفى الصحاح والمخصص أنه اسم كلبة، وهو الذى أراده الناظم . وقد مر بك بيت لَبيد الذى ذكر فيه كلبة تسمى بهذا الاسم . ومثله كَسْبَةُ بالفتح ، قال الأعشى :

ولَزَّ كَسْبَةَ أُخْرى فَرْعُها فَهِقُ

(١٦) العَوْلَقُ بفتح العين المهملة وسكون الواو وفتح اللام و بعدها قاف : الكلبة الحريصة . والمعاوية الكلبة المستَحْرِمَةُ تعوى إلى الكلاب . ومن طريف

ما يحكى أن جارية بْن قُدَامَة دخل على أمير المؤمنين معاوية بن أبى سفيان ، فقـال له : ما كان أَهْوَنَك على أهلك إذ سموك جارية ! فقال : وما كان أَهْوَنَك على أهلك إذ سموك معاوية ! وهى الأنثى من الكلاب . ويروى أن شريك بن الأعور دخل عليه وكان دميما ، فقال له معاوية : إنك لدميم والجميل خير من الدميم ، وإنك لشريك وما لِله شريك ، وإن أباك لأعور والصحيح خير من الأعور ، فـكيف سُدْتَ قومك ؟ فقال له : إنك معاوية ، وما معاوية إلا كلبة عوت فاستعوت الكلاب ، وإنك لابن صخر والسهل خير من الصخر ، وإنك لابن حرب والسّلم خير من الحرب ، وإنك لابن أمية ، وما أُمَيّة إلا أَمَة صُغِّرت ، فـكيف صرت أمير المؤمنين ؟ !

ويشبه هذا ما رواه أبو هلال فى الصناعتين : أن رجلا من قريش قال لخالد بن صفوان : ما اسمك ؟ قال خالد بن صفوان بن الأهتم ، فقال الرجل : إن اسمك لـكذب ، ما خلد أحد . وإن أباك لصفوان ، وهو حجر . وإن جدك لأهتم ، والصحيح خير من الأهتم . قال خالد : من أى قريش أنت ؟ قال : من بنى عبد الدار . قال : فمثلك يشتم تميما فى عزّها وحَسَبِها ، وقد هشمتك هاشم ، وأَمَتْك أُمَيّةُ ، وجمحت بك جمح ، وخزمتك مخزوم ، وأقصتك قصىّ ، فجعلتك عبد دارها ، وموضع شنارها ؛ تفتح لهم الأبواب إذا دخلوا ، وتغلقها إذا خرجوا ! انتهى .

واللَّعْوَة بفتح اللام وسكون العين المهملة ، واللَّعاة بفتحتين : الكلبة من غير تخصيص بشَرَهٍ وحرص ، وقال الجاحظ فى كتاب « الحيوان » : يقال أحرص من لَعْوة ، وهى الكلبة . وفى اللسان ومجمع الأمثال للميدانى : (أجوع من لَعْوة) .

(١٧) العُسْبُورَةُ بضم العين وسكون السين المهملتين وضم البـاء الموحدة

وبعدها واو ساكنة وراء وهاء : ولد الكلب من الذئبة ، ويقال له : العسبور أيضاً ، ولهذا قال الناظم (وإن ترل ها لا تلم) أى إن نطقت به بدون هاء لا يلومك إنسان ، لأنه مسموع .

(١٨) الخَيْهَفَعَى بفتح الخاء المعجمة وسكون الياء المثناة التحتية ، وفتح الهاء والفاء والعين المهملة مقصوراً : ولد الكلب من الذئبة . وقد سمع أيضاً بالمد . وفى اللسان : حكى الأزهرى عن أبى تراب قال : سمعت أعرابيا من بنى تميم يكنى أبا الخَيْهَفَعَى ، وسألته عن تفسير كنيته ، فقال : يقال إذا وقع الذئب على الكلبة جاءت بالسِّمْع ، وإذا وقع الكلب على الذئبة جاءت بالخيهفعى . قال : وليس هذا على أبنية أسمائهم مع اجتماع ثلاثة أحرف من حروف الحلق ، وقال عن هذا الحرف وعما قبله فى باب رباعى العين فى كتابه : وهذه حروف لا أعرفها ، ولم أجد لها أصلا فى كتب الثقات الذين أخذوا عن العرب العاربة ما أودعوا كتبهم ، ولم أذكرها وأنا أحقها ، ولكنى ذكرتها استندارا لها وتعجباً منها ، ولا أدرى ما صحتها . انتهى .

(١٩) الدَّيْسَم بفتح الدال المهملة وسكون الياء المثناة التحتية وفتح السين المهملة وبعدها ميم : ولد الثعلب من الكلبة ، أو ولد الذئب منها . هكذا فى القاموس واللسان ، وقال الجوهرى فى الصحاح : الدَّيْسَم : ولد الدُّب ، قال : وقلت لأبى الغَوْث : يقال إنه ولد الذئب من الكلبة ، فقال : ما هو إلا ولد الدُّب . انتهى . وقال الجاحظ : إنه ولد الذئب من الكلبة ، وهو أغبر اللون ، وغبرته ممتزجة بسواد .

(٢٠) الهَرَاكِلَة بفتح الهاء والراء وكسر الكاف وفتح اللام : كلاب الماء ، وقول ابن أحمر الباهلى يصف دُرَّة :

رَأَى مِنْ دُونِهَا الْغَوَّاصُ هَوْلاً هَرَاكِلَةً وحِيتَاناً وَنُونا

فسره الأزهرى فى التهذيب بكلاب الماء . وقال الصاغانى فى العُباب : هى جِمال الماء ، وقيل : هى ضخام السمك .

(٢١) القُنْدُس كقُنفذ ، أى بضم القاف وسكون النون وضم الدال المهملة وبعدها سين مهملة : كلب الماء . أهمله القاموس واللسان والمخصص ، وذكره شارح القاموس والدميرى فى حياة الحيوان ، ونسبا تفسيره بذلك لابن دَحْيَة . كما ذكره الناظم ، وعبارته تفيد أنه أُهْمل ونُسِى .

(٢٢) القُضَاعَة بضم القاف وفتح الضاد المعجمة والعين المهملة : اسم كلبة الماء .

(٢٣) شرع الناظم فى هذا البيت وما بعده يعدد أسماء ابن آوى ، تبعاً لمن عده نوعا من الكلاب ، فذكر من أسمائه : الدَّأْل بفتح الدال المهملة وسكون الهمزة وبعدها لام . والدئل بضم فكسر ، وقد نصوا على أن لا نظير لها إلّا : رُئِم . والدُّؤُل بضمتين . والدَّأَلان محركةً ، ويقال فيه الذَّأْلان بفتح الذال المعجمة ، والذؤْلان بضمها ، إلا أن الهمزة فيهما ساكنة . والعِلَّوْض بكسر العين المهملة وفتح اللام المشددة ، وسكون الواو وبعدها ضاد معجمة . والنَّوْفَل بفتح النون وسكون الواو وفتح الفاء وبعدها لام . واللَّعْوَض بفتح اللام وسكون العين المهملة وفتح الواو ، وبعدها ضاد معجمة . والسُّرْحُوب بضم السين المهملة وسكون الراء وضم الحاء المهملة وبعدها واو ساكنة وباء موحدة . والوَعّ بفتح الواو وبعدها عين مهملة مشددة . والعِلَّوْش بكسر العين المهملة وفتح اللام المشددة وبعدها واو ساكنة وشين معجمة . والوَعْوَع بفتح الواوين وإسكان العين الأولى المهملة . والشَّغْبَر بفتح الشين وإسكان الغين المعجمتين ، وفتح الباء الموحدة وبعدها راء ؛ وبالزاى المعجمة تصحيف . والوَأْوَاء بفتح الواوين وسكون الهمزة الأولى . وكلها من أسماء ابن آوى .

هذا ما أردنا بيانه، ويتبين منه ثلاثة أمور :

الأول : أن الناظم — رحمه الله — مع استيفائه لكثير من أسماء الكلب قد أدرج فيها بعض صفات يشترك فيها الكلب مع غيره ، ولم نجد مع كثرة البحث نصا على أنها غلبت عليه ، حتى يمكن عدها فى أسمائه ؛ كذكره الزاهد والمنذر ، وداعى الكرم ، ومشيد الذكر ونحوها . فالظاهر أنه تسامح فى إيرادها ، أو يكون وقف فيها على مالم نقف عليه . وفوق كل ذى علم عليم .

الأمر الثانى : إيراده أربعة أعلام مشهورة للكلاب نص منها على ثلاثة ، وهى : كُسَيْبٌ وكَسابِ وكَسْبَةُ ، وسكت عن واحد وهو سُحَامِ ، فدل بسكوته على عَدّه من أسماء الأجناس ، وكلاهما لا يبرئه من مَعَرَّة المعَرِّى ؛ لأن جعل سُحام اسم جنس وَهَمٌ ظاهر . وإيراد ثلاثة أعلام خارج عن مقصود أبى العلاء . إلا أن يكون أوردها زيادة منه فى الفائدة . وهو أيضاً تقصير ، لاقتصاره عليها ، مع وجود ما هو أشهر منها .

الأمر الثالث : ما فاته من أسمائه ، وهو مانريد استدراكه هنا ، وبعضه مر أثناء الشرح . فمنها :

« الدِّرْوَاسُ » بكسر أوله ، وهو الغليظ العنق من الكلاب ، وقيل الكبير الرأس منها ، وقول بعضهم :

بِتْنَا وبَاتَ سَقِيطُ الطلّ يَضْرِبُنَا عِنْدَ النَّدُولِ قِرَانَا نَبْحُ دِرْوَاسِ

قيل : إن أولى مايفسّر به : الكلب ، لقوله : قِرَانَا نَبْحُ دِرْوَاسِ ؛ لأن النبح إنما هو فى الأصل للكلاب . وقوله : النَّدُول ، يجوز أنه عنى به امرأة أو رجلا من النَّدْل وهو شبيه الوسخ ، أو عَنَى به كَلْبَةً . ورواه الجاحظ فى كتاب الحيوان : (بين

البيوت) . ودِرْوَاسٌ أيضاً : اسم كلب بعينه . والأظهر أن البيت قيل فيه ، أو فى كلب آخر يسمى بهذا الاسم .

و « الأَرْشَم » قالوا سمى بذلك لتشممه الطعام وحرصه . وقد يطلق أيضاً على الذئب .

و « العِفْرَاسُ » بالكسر ، وهو الشديد العنق الغليظه من الكلاب ، ومثله « العَفَرْنَسُ » . و « القُلَاطُ » بالضم و « القِيلِيطُ » بالكسر كلاهما القصير المجتمع ، ويقال فيهما : القَلَطِيّ ، وقد ذكره الناظم .

« والأَغْضَفُ » ومثله « الغاضِفُ » وهو المسترخِى الأُذُن من الكلاب ، وفرق بينهما ابن الأعرابى فقال : الغاضف من الكلاب المتكسّر أعلى أُذُنه إلى مُقَدَّمِه ، والأَغْضَف إلى خلفه ، كذا فى اللسان . ثم قال : والغُضْفُ : كلاب الصيد من ذلك صفة غالبة . انتهى : وقول لبيد :

حَتَّى إِذَا يَئِسَ الرُّمَاةُ وأَرْسَلوا   غُضْفاً دَوَاجِنَ قَافِلاً أَعْصَامُهَا

أراد كلاب الصيد .

و « ابن بُقَيْع » بالتصغير ذكره ابن الأثير فى المرصَّع . و « ابن وَازِع وابن زَارِع وابن ذَارِع وابن ذِرَاع وابن بَوْزَع وابن عَوْلَق »

فهذه خمسة عشر اسماً للكلب فاتت الناظم .

وفاته من أسماء أولاده :

« الضِّرْوُ » بالكسر، وهو الضارى من أولاد الكلاب . ومثله « الضَّرِىّ » و « الأسبُورُ » وهو ولد الكلب من الضَّبُع ، كما فى حياة الحيوان ومجمع الأمثال ، عند تفسير قولهم : « أَسْمَع من سِمْع » .

وفاته من أسماء ابن آوى :

« البُرْغُل » بالضم ، وهو ولد الوَبْر من ابن آوى .

وفاته من أسماء الكلبة :

«اللَّماة» بفتحتين، وهى الكلبة الحريصة ، أوالكلبة مطلقاً من غير تخصيص.

« والبَوْزَعُ » وهى الكلبة الحريصة ، كما فى المرصَّع .

وفاته من كُنَى الكلب : « أبو حاتِم » . و « أبو ذِرَاع » . و « أبو قيس » و « أبو عامر » لأنه يعمر بيت صاحبه بحراسته إياه. و « أبو عِطاف» بكسر العين والتخفيف ، لأنه يعطف على أصحابه ، قال العَجَّاج يصف صائداً :

ذَا أَكْلُبٍ كَالأَسْهُمِ العِطَافِ يُشْلِى عِطَافاً وأَبا عِطَافِ

كذا فى المرصّع . ورواية الديوان : ذَا أَكْلُبٍ نوَاهِزٍ خِفَافِ .

ومن أمثالهم فى هذا المعنى : « آلَفُ مِنْ كَلْبٍ » .

ولهم فى وفاء الكلب وعطفه على صاحبه أقوال ونوادر كثيرة ، وربما فضلوه فى ذلك على الصاحب والخليل . وقد جمع منها ابن المرزبان جملة صالحة فى كتاب سماه : « فضل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب » وقفت عليه ونقلت منه فى هذه الرسالة . ومن وقف على ما كتبه الجاحظ عن الكلب فى كتاب « الحيوان» رأى عجباً عجابا . ويذكرون من نوادر وفائه أن الربيع بن بدر كان له كلب قد رباه ، فلما مات جعل الكلب يتضرب على قبره حتى مات . ولما مات عامر بن غبرة لزمت كلابه قبره حتى ماتت عنده ، وتفرق عنه الأهل والأقارب . وقال الشعبي : خير خصلة فى الكلب أنه لا ينافق فى محبته . وأنشد القالى فى أماليه لأعرابى :

كلابُ الناس إنْ فكّرتَ فيهم أضرُّ عليك من كَلْب الكلاب

لأن الكلب لا يؤذى صديقاً وأن صديق هذا فى عَذَاب

ويأتى حين يأتى فى ثياب   وقد حُزمت على رجل مُصَاب
فأخزى الله أثواباً عليـــه   وأخزى الله ما تحت الثياب

ومن أغرب ما رأيته ما حكاه الجرجانى فى كناياته عن محمد بن حرب قال : رأيت العَتَّابىَّ ينادم كلباً، يشرب كأساً ويولغه كأساً. فكلمته فى ذلك ، فقال : إنه يكف عنى أذاه وأذى سواه ، ويشكر قليلى ، ويحفظ مبيتى ومقيلى ، فهو من بين الحيوان خليلى . قال ابن حرب : فتمنيت أن أكون كلباً لأحوز هذا النعت . انتهى . وقد ذكر ابن المرزبان هذه القصة لإبراهيم الموصلى مع الفضل ابن يحيى ببعض اختلاف . والله أعلم .

ولم يذكر الناظم من كُنَى الأنثى شيئاً وهى :

« أم عولق » و « أم ذِراع » و « أمّ الهَمّرِش » بتشديد الميم المفتوحة كما فى المرصع : وفى القاموس واللسان : الهَمَّرِشُ اسم كلبة . و « أم يَعفور » قال فى المرصع : هى الكلبة ، وأنشد :

يا أم يَعفورٍ سَقَاكِ العَهْدُ   لا زَالَ من صَيْدٍ عَلَيْكِ لِبْدُ

يقول : لا زال عليك مما تصيدين لِبْدٌ من وَبَر الأرانب وغيرها . واليَعفور فى الأصل : ولد الظبية وولد البقرة الوحشية . و « أم العاويات » والعاويات أولادها .

وكذلك لم يذكر من كُنَى ابن آوى شيئاً ، وهى :

« أبو ذؤيب » . و « أبو كَعْبٍ » . و « أبو معاوية » . و « أبو أيوب » . و « أبو وائل » . والله أعلم .

أما أعلام الكلاب المشهورة التى عنوا بذكرها فكثيرة منها :

سُحَيْمٌ ، وَطِحَالٌ ، وأَكْدَرُ ، وَوَاشِقٌ ، وزُهمَانُ ، ومَيْلَعُ ، وبَرَاقِشُ ، وجَدْلاَء : كلبات . والمُخْتَلِسُ ، وغَلاَّبٌ ، والقَنِيصُ ، وسَلْهَبٌ ، وسِرْحَانُ ،

والمِغْناطِيسُ ، هي خمسة أكلُبٍ كانت لرجل اسمه ذريح ، وآخر اسمه أبو دُجانة ، يصيدان بها الظباء .

وقَرْحان : اسم كلب له قصة تحاميت عن ذكرها ، حَبَس سيدُنا عثمان بن عفان بسببها ضَابِئُ بن الحارث البُرْجُمِيّ .

وضُمْران بالضم وبالفتح ، وروى بهما فى قول النابغة :

فهاب ضُمْرَانُ منهُ حِينَ يُوزِعُهُ طَعْنُ المعارِكِ عِنْدَ المُجْحَرِ النَّجِدِ

هو اسم كلب .

وضَبَّار بتشديد الباء الموحَّدَة ، الذى قال فيه الحارث بن الخزرج الخفاجيّ :

سفرتْ فقلت لها هَجٍ فتبَرْقَعَتْ فذَكَرْتُ حين تبرْقعتْ ضبَّارا

وتزَيَّنتْ لتروعَنِي بجمَالِها فكأنَّمَا كُسِيَ الحِمَارُ خِمَارا

نخرجْتُ أعْثُرُ فى قَوَادِمِ جُبَّتِي لولا الحياء أطَرْتُها إحْضَارا

هو اسم كلب له ، وقوله : هَجٍ زجر للكلب . وكان لسليمان بن داود الهاشمى كلب صيد يسمى زُنْبُورًا ، وفيه يقول أبو نواس :

إذا الشياطين رَأتْ زُنْبُورَا قد قُلِّدَ الحَلْقَةَ والسُّيُورَا

من أرجوزة يقول فى آخرها :

فَأمْتعَ اللهُ به الأمِيرَا رَبِّي وَلاَ زَالَ بهِ مَسْرُورَا

ومن طرائفهم ما رواه الراغب فى محاضراته لأبى مِحْجَن ، فى رجل اسمه : وَثَّاب واسم كلبه : عمرو ، ورواها فى موضع آخر من هذا الكتاب لابن أبى عتيق ، باختلاف فى الرواية .

وَلَوْ هيَّا لَهُ اللهُ من التوفيق أسْبَابا

لسَمَّى نفْسَهُ عَمْرًا وسَمَّى الكَلْبَ وَثَّابا

قلت : تذكرت بهذين البيتين قصة ظالم ، لما جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم يريد الإسلام ، وكان معه كلب له اسمه : راشد ، فسأله عليه السلام عن اسمه واسم كلبه ، فلما أخبره ضحك عليه السلام ، وقال : اسمك راشد واسم كلبك ظالم . وفى رواية أنه كان يسمى غاوى بن ظالم ، فسماه عليه السلام راشد بن عبد الله . وسبب إسلامه أنه كان سادنا لصنم اسمه سواع ، فرأى يوما ثعلباً يعدو عليه ببوله ، فكسره ، وقال فيه :

أَرَبٌّ يبول الثُّعْلُبَانُ برأسِهِ   لقد ذَلَّ من بالَتْ عَلَيه الثَّعَالِبُ

وفى القصة ، ورواية هذا البيت ونسبته لراشد، اختلاف ليس هذا محل ذكره.

وكان لميمونة أم المؤمنين رضى الله عنها كلب اسمه مِسْمَارٌ . قال صاحب القاموس : إنه مرض، فقالت: وارَحْمَتَا لمِسْمَار . وفى كتاب « فضل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب » لابن المَرْزُبَان ، أنها رضى الله عنها كانت إذا حجّت خرجت به معها ؛ فليس يطمع أحد فى القرب من رَحلها مع مسمار ، فإذا رجعت جعلته فى بنى جَدِيلَةَ ، وأَنْفَقَتْ عليه ، فلما مات قيل لها : مات مسمار ، فبكت وقالت : فُجِعْتُ بمسمار .

وفى هذا القدر كفاية فقد كدنا نخرج عن المقصود . ولولا خوف الإطالة لذكرت أيضاً ما ورد من أمثالهم فى الكلب ، وهى كثيرة تربو على خمسة وخمسين مثلا ، على أن ماذكرناه و إن طال فلا يخلو من فائدة ، وفى التنقُّل جِمَام للأنفس .

رَجْعَةٌ إلى أبي العَلاَء

وعلى الجملة فلا يختلف اثنان فى علمه وفضله ، ووقوفه على دقائق العربية ، ولا عبرة بمن لحّنه فى قوله :

يذيبُ الرعبُ منه كلَّ عَضْبٍ   فلولا الغِمْـــدُ يمسكُهُ لَسَالاَ

بأن مذهب الجمهور وجوب حذف الخبر بعد لولا ، بناء على أنه لا يكون إلا كونا مطلقا ، فإذا أريد الكون المقيد جعل مبتدأ ، فكان عليه أن يقول : فلولا إمساك الغمد إياه لسال ، أى موجود ؛ وأما التركيب الذى أتى به فتركيب فاسد . انتهى .

قلت : وهذا المخَطِّىءُ هو المخْطِىءُ لاحتمال تقدير يمسكه جملة معترضة بين المبتدإ والجواب والخبر محذوف ، أو تقدير يمسكه بدل اشتمال على أن الأصل أن يمسكه ، ثم حذفت أنْ وارتفع الفعل ، وعلى هذا فالخبر محذوف أيضاً . والمعنى : فلولا الغمد إمساكه موجود لسال . انتهى ملخصا من المغنى وحواشيه . هـذا إذا خرجنا البيت على مذهب الجمهور الذى تمسك به المعترض ، والمذهب الحق ما ذهب إليه ابن مالك والرمّانى وابن الشجرى والشلوبين ؛ بأن الخبر إذا كان كونا مقيداً ، ولم يدل عليه دليل ، وجب ذكره ، وإن دل عليه دليل جاز إثباته وحذفه . وعليه فلا وجه للتخطئة فى البيت ، فضلا عن ورود مثله فى الكلام الموثوق به .

وأما ذكاؤه وسرعة فهمه وقوة حافظته ؛ فقد رووا فيها غرائب ، منها ماينبو العقل عن تصديقه . وقد صرح صاحب معاهد التنصيص بأن للناس فى ذلك حكايات مشهورة يضعونهـا ، وغالبها مستحيل . إلا أن اشتراط استيفاء أخباره يقضى بذكر ما وقفنا عليه منها ، وعلى القارئ تمييز الغثّ من السمين .

فمن ذلك : مانقل عن تلميذه التبريزى أنه كان قاعداً بين يديه فى مسجد بمعرة

النعمان يقرأ عليه شيئاً من تصانيفه . قال : وكنت أقمت عدة سنين لم أر أحداً من أهل بلدى ، فدخل المسجد بعض جيراننا للصلاة ، فرأيته وعرفته ، فتغيرت من الفرح ، فقال لى أبو العلاء : أى شيء أصابك ؟ فأخبرته خبر الرجل ، فقال : قم وكلمه ، فقلت : حتى أتمم النسق ، فقال : قم وأنا أنتظرك ، فقمت وكلمته بلسان الأَذْرَبيَّة شيئاً كثيراً ، إلى أن سألت عن كل مابدا لى . فلما رجعت إليه قال لى : أى لسان هذا ؟ قلت : هذا لسان أهل أَذْرَبِيجَانَ . فقال لى : ما عرفت اللسان ولا فهمته ، غير أنى حفظت ما قلتما ، ثم أعاد على اللفظ بعينه من غير أن ينقص منه أو يزيد ، فتعجبت غاية العجب ، كيف يحفظ مالم يفهمه .

ومنه : مارواه بعض طلبته ، أن جاراً له أعجميا غاب عن المعرة ، وحضر رجل من بلده يبحث عنه ، فوجده غائبا ، ولم يمكنه المقام ، فأشار عليه أبو العلاء أن يذكر حاجته ، فجعل الرجل يتكلم بالفارسية وأبو العلاء مصغٍ إليه ، ولم يكن يعرفها ، إلى أن فرغ من كلامه ، ومضى الرجل . وقدم جاره الغائب ، فجعل أبو العلاء يردد عليه ما سمعه بلفظه ، والرجل يبكى و يستغيث ويَلْطِمُ ، إلى أن فرغ من الحديث . وسئل عن حاله ، فأَخْبَرَ أنه أُخبِرَ بموت أبيه و إخوته وجماعة من أهله .

وهذه الحكاية حكاها الوطواط فى « الغرر والعرر » على غير هذا الوجه . قال : ومن عجيب حكاياته أن أبا زكريا التبريزى كان يقرأ عليه فأتاه رسول من عند أهله من تبريز ، فجاء حَلْقة أبى العلاء ، فسأل عنه ، فأخبر أنه غائب فى بعض شأنه . فقال له أبو العلاء : ما تريد به ؟ قال : جئت برسالة من عند أهله . فقال : هاتها حتى نوصلها إليه ، قال : إنها مشافهة ، قال : فأسمِعناها حتى نوصلها إليه . قال : إنها بالفارسية . قال : لا عليك أن تسمعناها ولا تسقط منها حرفا . فأوردها عليه . فلما جاء التبريزى أُخبر أن رجلا جاء من تبريز ومعه رسالة

من أهله ، فقال : ليتكم أخذتموها منه ، فإنى مشوق لما يرد من أخبارهم . فقيل له : إنه قال إنها مشافهة . فتأسف لذلك . فلما رأى أبو العلاء تأسفه ، قال له : لا عليك ، إنى سمعتها منه وحفظتها . ثم أملاها عليه . فجعل التبريزى يضحك مرة ، ويبكى مرة ، فسأله أبو العلاء عن ضحكه و بكائه ، فقال : تارة تخبرنى بما يسرنى فأضحك ، وتارة تخبرنى بما يحزننى فأبكى . انتهى .

ومنه : ماحكاه الأمير أسامة بن مُنْقِذ ، قال : كان بأنطاكية خزانة كتب ، وكان الخازن بها رجلا عَلَوِيًّا ، فجلستُ يوما عنده ، فقال لى : قد خبأت لك خبيئة لم تسمع بمثلها فى تاريخ . فقلت : وما هى ؟ قال : صبى دون البلوغ ضرير يتردد إلىّ ، وقد حفّظته فى أيام قلائل عدة كتب ، وذلك أنى أقرأ عليه الكراسة والكراستين مرة واحدة ، فلا يستعيد إلا ماشك فيه ، ثم يتلو علىّ ماسمعه . قلت : فلعله يكون محفوظا له ! فقال : سبحان الله ! كل كتاب فى الدنيا يكون محفوظا له ، ولئن كان كذلك فهو أعظم . ثم حضر المشار إليه ، وهو صبى دميم الخلقة ، مجدّر الوجه ، على عينيه بياض من أثر الجدرىّ ، كأنه ينظر بإحدى عينيه ، وهو يتوقد ذكاء ؛ يقوده رجل طويل أحسبه من أقاربه . فقال له الخازن : ياولدى ، هـذا السيد رجل كبير القدر ، وقد وصفتك له ، وهو يحب أن تحفظ اليوم مايختاره لك ، فقال : سمعا وطاعة ، فليختر مايريد . قال ابن منقذ : فاخترت شيئًا وقرأته عليه وهو يموج ويستزيد ، فإذا مر بشىء يحتاج إلى تقريره فى خاطره ، يقول : أعد هذا ، فأعيده عليه ، حتى أتيت على مايزيد على كراسة ، ثم قلت : يُقنع هذا من قبل نفسى . قال : أجل حرسك الله . وتَلَا علىّ ما أمليته عليه ، وأنا أعارضه بالكتاب حرفا حرفا ، فكاد عقلى يذهب لما رأيت منه ، وعلمت أن ليس فى العالم من يقدر على ذلك إلا إن شاء الله . وسألت عنه ،

فقيل لى : هذا أبو العلاء المعرى من بيت العلم والقضاء والثروة والغنى . هكذا يروون هذه الحكاية ، والأمير أسامة المذكور ولد سنة ٤٨٨ أى بعد موت أبى العلاء بنحو تسع وثلاثين سنة ، فالقصة على هذا موضوعة ، اللهم إلا أن تكون وقعت مع بعض أمراء بنى منقذ ، ممن تقدم أسامة .

ومنه : أن سَمَّاناً حاسب عميلا له برقاع كان يثبت فيها ما يأخذه منه عند حاجته ، وكان أبو العلاء فى غرفة يسمع محاسبتهما ، وبعد مدة ضاعت الرقاع من السمّان ، فأخذ يتململ ويتأذى . وبلغ أبا العلاء خبره ، فقال له : ما عليك من بأس ، أنا أملى عليك حسابه . وجعل يمليه عليه على ما فى الرقاع رقعة رقعة ، والسمّان يكتبها . ثم وجد بعد ذلك رقاعه ، فإذا هى مطابقة لما أملاه أبو العلاء . وهذا إن صح ، فهو غاية الغايات فى قوة الحفظ والتعليق .

وقريب مما تقدم ، ما روى عن أبى تمام حين سمع البحترى ينشد قصيدته التى أولها :

أأفاق صبٌّ من هوًى فأُفيقا   أم خان عهداً أم أطاع شفيقا

فلما فرغ من إنشادها ، أقبل عليه باللوم والتقريع ، واتهمه بسرقة شعره ، ثم اندفع يعيد القصيدة حتى أتى على أكثرها . والقصة مشهورة . ومثله ما روى عن المتنبي فى حفظه كتاباً عرض عليه للبيع فى نحو ثلاثين ورقة . ورَوَى مثله الإمام أبو العباس المبرّد ، وهو الثقة فيما ينقل ، فذكر فى كامله أن ابن عباس رضى الله عنه لما أنشده عمر بن أبى ربيعة كلمته : (أَمِنْ آلِ نُعْمٍ أنت غادٍ فَمُبْكِرُ) ، ولم يكن سمعها من قبل ، استظهرها من مرة واحدة ، وأعادها على الحضور . إلا أن ما نقل عن المعرّى يفوق كل ذلك .

وذكروا أن أبا نصر أحمد بن يوسف المنازى ، دخل على أبى العلاء وهو

بالشام فى جماعة من أهل الأدب ، وأنشده قوله :

وقَانَا لَفْحَةَ الرَّمْضَاءِ وَادٍ سقاه مُضَاعَفُ الغَيْثِ العَمِيمِ

نزلنا دوحه[١] فحنا علينا حنو المرضعات[٢] على الفطيم

وأرشفنا[٣] على ظمأ زلالا ألذ من المدامة للنديم

يصد الشمس أنى واجهتنا فيحجبها و يأذن للنسيم

تروع حصاه حاليةَ العذارى فتلمس جانب العقد النظيم

فقال أبو العلاء : أنت أشعر مَنْ بالشام . ثم رحل أبو العلاء إلى بغداد ، فدخل عليه المنازى فى جماعة من أدبائها ، وهو لا يعرف منهم أحداً ، فأنشدوه من أشعارهم ، وأنشده المنازى :

لقد عرض الحمام لنا بسجع إذا أصغى له ركب تلاحى

شجى قلب الخلىّ فقيل : غنَّى و برّح بالشجىّ فقيل : ناحا

وكم للشوق فى أحشاء صب إذا اندملت أجدّ لها جراحا

ضعيف الصبر عنك وإن تقاوى وسكران الفؤاد وإن تَصاحا

كذاك بنو الهوى سَكْرَى صُحَاةً كأحداق المَهَا مَرْضَى صِحَاحَا

فقال أبو العلاء : ومن بالعراق ! عطفاً على قوله : من بالشام . والراجح عندى أن هذه القصة موضوعة ، لا لغرابتها ، فإن فيما تقدم فى قصته مع السَّمَّان وغيره ما هو أغرب وأعجب ، ولا يبعد على من يستظهر أوراق الحساب رقعة رقعة ، أن يسمع صوت المنازى ونغمته فى إنشاده ، فيعيه و يعرفه بعد ذلك من كلامه ؛ بل لأن الثابت فى الأبيات الميمية أنها لحمدونة[٤] بنت زياد الأندلسية ، أثبت

---

(١) ويروى : تظل غصونه تحنو علينا .

(٢) ويروى : الوالدات .

(٣) ويروى : وأسقانا .

(٤) ورد اسمها فى بعض التواريخ : حمدة ، وفى بعضها : حميدة ، وفى بعضها : حمدونة .

ذلك مؤرخو الأندلس ، وجزم به أبو جعفر الرعينى الأندلسى ، وهو من الراحلين إلى المشرق . وملخص ما قاله فى شرحه على بديعية صاحبه ابن جابر : أن بعض المشارقة غرهم بُعدُ ديارها ، وخلوّ بلادهم من آثارها ، فانتحلوا أشياء من شعرها . ومن ذلك نسبتهم أبياتها الميمية للمنازى من شعرائهم . قال : وقد رأيت بعض المؤرخين من أهل بلادنا أثبتوها لها قبل أن يخرج المنازى من العدم إلى الوجود ، ويتصف بلفظة الموجود . انتهى . أما الأبيات الحائيـة فالراجح أنها للمنازى ، ونسبها الصفدى فى شرحه على لامية العجم لابن قاضى مِيلَة . والله أعلم .

وقال كمال الدين بن العديم فى تاريخ حلب : بلغنى أن المنازى عمل هذه الأبيات ليعرضها على أبى العلاء ، فلما وصل إليه أنشده إياها ، فجعل كلما أنشده المصراع الأول من كل بيت ، سبقه أبو العلاء إلى المصراع الثانى الذى هو تمام البيت كما نظمه . ولما أنشده : (نزلنا دَوْحَةُ فحنا علينا) قال أبو العلاء : (حنو الوالدات على الفطيم) فقال المنازى : إنمـا قلت على اليتيم . فقال أبو العلاء : الفطيم أحسن . انتهى والله أعلم .

قلت : الشيء بالشيء يذكر ، والحديث ذو شجون . والذى ذكره ابن العديم له نظائر . منها ما رواه طيفور فى تاريخ بغداد عن عمارة بن عقيل . قال : أنشدت المأمون قصيدة فيها مديح له تبلغ مائة بيت ، فابتدأت بصدر البيت فبادرنى إلى قافيته ، فقلت : والله يا أمير المؤمنين ما سمعها منى أَحَدٌ قط . قال : هكذا ينبغى أن يكون ، ثم أقبل علىّ، فقال : أما بلغك أن عمر بن أبى ربيعة أنشد عبد الله ابن عباس قصيدته التى يقول فيها :

* تشُطُّ غداً دار جيراننا *

فقال ابن عباس :

* ولَلدّار بعد غدٍ أَبْعَدُ *

ثم قال المأمون : أنا ابن ذاك . وفى « تحرير التحبير » لابن أبى الإصبع أن ابن عباس لما كمل البيت ، قال له ابن أبى ربيعة : هكذا والله قلت . فقال عبد الله : وهكذا يكون .

ورُوى أن جريراً والفرزدق حضرا مجلس الوليد بن عبد الملك ، وعَدِىّ بن الرِّقَاع ينشد قصيدته :

عَرَفَ الدِّيَارَ توهما فاعتادها من بعد ما درس البِلَى أُبلادَها

فلما انتهى إلى قوله : تُزْجِى أغَنَّ كأنَّ إبْرَةَ رَوْقِهِ

تشاغل الوليد عن الاستماع ، وقطع عَدِىّ الإنشاد ، فقال الفرزدق لجرير : ما تراه يقول ؟ فقال : أراه يستلب بها مثلا ، فقال الفرزدق : يا لُكَع ! إنه سيقول : قلَمٌ أصاب من الدواة مِدَادَها . ثم عاد الوليد إلى الاستماع ، وعاد عدى إلى الإنشاد ، فنطق بالعجُز كما قال . فقال جرير للفرزدق : ويحك ! فكأن سمعك مخبوء تحت لسانه ، فقال له : اسكت ، شغلنى سبّك عن جيد الكلام ، والله لمّا سمعت صدر بيته رحِمتُه ، فلما أنشد عجزه انقلبت الرحمة حسدا . وفى رواية العقد الفريد عن الأصمعى أن جريراً هو السابق لعجز البيت لا الفرزدق . وقال زكى الدين بن أبى الإصبع فى « تحرير التحبير » : الذى أقوله : إن بين ابن عباس و بين الفرزدق فى استخراجهما العجزين كما بينهما فى مطلق الفضل ، وفضل ابن عباس رضى الله عنهما معلوم ، وأنا أذكر الفرق . فإن بيت عَدِىّ بن الرِّقَاع من جملة قصيدة تقدم سماع معظمها ، وعلم أنها دالية مردفة بألف موصولة مخرجة بألف منصوبة الروىّ من وزن معروف ، ثم تقدم فى صدر البيت ذكر ظبية تسوق خِشْفاً لها ، قد أخذ الشاعر فى تشبيه طرف قرنه مع العِلم بسواده ، وفى ذلك مايدل على عجز البيت بحيث

يسبق إليه من هو دون الفرزدق من حُذّاق الشعراء . وبيت عمر مفرد لم تعلم قافيته من أى ضرب هى من القوافى ، ولا رويّه من أى الحروف ، ولا حركة رويّه من أى الحركات ، فاستخراج عجزه ارتجالا فى غاية العسر ، ونهاية الصعوبة ، لولا ما أمد الله به هؤلاء القوم من المواد التى فضلوا بها عن غيرهم . ومن حذق عبد الله ابن العباس رضى الله عنهما ، ودقيق معرفته باختيار الكلام ، جَعْله قافية الذى أتى به (أَبْعَد) ولم يجعلها (أَنْزَحُ) وكان ذلك ممكناً له ، لسكون (أبعد) أسرع ولوجاً فى السمع ، وأسبق إلى الذهن ، وأدخل فى القلب ، وأكثر استعمالا ، وأعرف عند الكافة ، وبها جاء القرآن العزيز دون أنزح ، وهى أحب إلى اللسان ، وأولى بالبيان . انتهى كلامه بنصه .

وقد عَنَّ لى أن أورد هنا قصيدة عَدِىّ بن الرِّقَاع ، لأنها لا توجد برمتها فى كتب الأدب المتداولة فى الأيدى ، مع تشوق كثير من الأدباء للوقوف عليها .

قال عَدِىّ بْنُ الرِّقَاع يمدح الوليد بن عبد الملك أحد الخلفاء من بنى أمية :

عَرَفَ الدِّيار توَهُّماً فاعْتادَهَا [(١)] ... من بَعْدِ ما دَرَسَ البِلَى أَبْلادَهَا

إلاَّ رَوَاسِيَ كُلُّهنَّ قَدِ اصْطلَى ... جَمْراً وَأَشْعَلَ أَهلُها إيقَادَها [(٢)]

كَانَتْ رَوَاحِلَ للقُدُورِ فعُرِّيَتْ ... مِنْهُنَّ واسْتَلَبَ الزَّمَانُ رَمَادَهَا

وَتَنَكَّرَتْ كلَّ التَّنَكُّرِ بَعْدَنَا ... والأرضُ تعرفُ بَعْلَهَا [(٣)] وَجَمَادَهَا

ولَرُبَّ واضِحَةِ الجَبِينِ خَرِيدةٍ ... بَيْضَاءَ قَدْ ضَرَبَتْ بِهِ أَوْتَادَهَا [(٤)]

---

(١) اعتادها : أعاد النظر إليها مرة بعد أخرى لدروسها حتى عرفها ، والرواية فى الأغانى واللسان : شمل بدل درس . والأبلاد : جمع بلد وهو الأثر .

(٢) رواية الأغانى : رواكد ، بدل : رواسى ، و : حمراء أشعل ، بدل : جمراً وأشعل .

(٣) البعل : الأرض المرتفعة التى لا يصيبها مطر إلا مرة واحدة فى السنة ، والجماد : اليابسة التى لم يصبها مطر ولا شىء فيها .

(٤) رواية الأغانى :

ولرب واضحة العوارض طفلة ... كالريم قد ضربت به أوتادها

تصطاد بهجتها المعلل بالصبا ... عرضا فتقصده ولن يصطادها(١)

كالظبية البكر الفريدة ترتعى ... من أرضها قفاتها وعهادها

خضبت بها عقد البراق جنينها ... عن عكرها علجانها وعرادها

كالزين فى وجه العروس تبذلت ... بعد الحياء فلاعبت أرءادها(٢)

تزجى أغن كأن إبرة روقه ... قلم أصاب من الدواة مدادها(٣)

ركبت به من عالج متحيرا ... قفرا تريث وحشه أولادها

فترى محانيه التى تسق الثرى ... والهبر يونق نبتها روادها(٤)

بانت سعاد وأخلفت ميعادها ... وتباعدت عنا لتمنع زادها

إنى إذا ما لم تصلنى خلتى ... وتباعدت عنى اغتفرت بعادها(٥)

إما ترى شيبى تقشع لمتى ... حتى علا وضح يلوح سوادها(٦)

فلقد ثنيت يد الفتاة وسادة ... لى جاعلا يسرى يدى وسادها

وأصاحب الجيش العرمرم فارسا ... فى الخيل أشهد كرها وطرادها

وقصيدة قد بت أجمع بينها ... حتى أقوم ميلها وسنادها

نظر المثقف فى كعوب قناته ... حتى يقيم ثقافه منادها

فسترت عيب معيشتى بتكرم ... وأتيت فى سعة النعيم سدادها

وعلمت حتى ما أسائل واحدا ... عن علم واحدة لكى أزدادها

---

(١) المعلل بالصبا : المشغول به المتلهى ، وأقصده : رماه بسهم فقتله .

(٢) الأرءاد : جمع رئد بالكسر ، وهو الترب ، وأكثر ما يكون فى الإناث .

(٣) الروق : القرن .

(٤) تسق تجمع ، والمراد تكرم نباتها . والهبر : المطمئن من الأرض ، وقد ضبط فى لسان العرب : نبتها بالنصب وروادها بالرفع ، والصواب العكس .

(٥) الخلة بالضم : الخليل ، يستوى فيه المذكر والمؤنث ؛ لأنه فى الأصل مصدر .

(٦) لاحه : غيره .

صلى الإلٰه على امرئٍ ودَّعْتُه وأتمَّ نِعْمَتَه عليه وزادَها

وإذا الرَّبيعُ تتابعتْ أنواؤُه فَسَقى خُناصِرَةَ الأحصِّ فَجادَها(١)

نَزَلَ الوليدُ بها فكان لأهلها غيثًا أغاثَ أنيسَها وبلادَها

أوَ لا ترى أنَّ البريَّةَ كُلَّها ألقتْ خزائمَها إليه فقادَها

ولقد أراكَ اللهُ إذْ ولّاكَها مِنْ أُمَّةٍ إصْلاحَها ورَشادَها(٢)

وعَمَرْتَ أرضَ المُسلمينَ فأقبلَتْ ونفيتَ عنها مَنْ يُريدُ فَسادَها(٣)

وأَصَبْتَ فى بَلَدِ العَدُوِّ مُصيبَةً بلغتْ أقاصِيَ غَوْرِها ونِجادَها

ظفراً ونصرًا ما تناوَلَ مِثْلَهُ أحدٌ من الخُلفاءِ كانَ أرادَها

وإذا نشَرْتَ له الثناءَ وجَدْتَهُ جَمَعَ المكارِمَ طِرْفَها وتِلادَها(٤)

غَلَبَ المَساميحَ الوليدُ سماحَةً وكفى قُرَيْشَ المُعْضِلاتِ وسادَها

تَأْتِيهِ أسلابُ الأعِزَّةِ عَنْوَةً قَسْرًا ويَجْمَعُ لِلحُرُوبِ عَتادَها(٥)

وإذا رَأَى نارَ العَدُوِّ تضَرَّمَتْ سامَى جَماعَةَ أهلِها فَاقْتادَها

بعَرَمْرَمٍ تبدو الرَّوابِي ذِي وَغًى كالحَرَّةِ احتمل الضُّحَى أطْوادَها(٦)

أطْفَأْتَ نارًا للحروب وأُوقِدَتْ نارٌ قدحتَ براحتيك زِنادَها

فبدت بَصِيرَتُها لِمَنْ يَبْغِى الهُدَى وأصابَ حَرُّ شَدِيدِها حُسَّادَها

وإذا غَـدَا يومًا بنَفْحَةِ نائلٍ عرَضَتْ له الغدَ مثلُها فأعادَها

---

(١) خناصرة : بليدة من أعمال حلب ، وهى قصبة كورة الأحص .

(٢) رواية العقد الفريد والأغانى : ولقد أراد الله .

(٣) رواية الأغانى : وكففت ، بدل : ونفيت .

(٤) الطرف والطريف والطارف : المال المستفاد . والتلاد : القديم الأصلىّ .

(٥) العتاد بالفتح : العدة والأهبة ، ورواية العقد الفريد :

لم تأته الأسلاب إلا عنوة غصبا ويجمع للحروب عتادها

(٦) الوعى بالمهملة : الجلبة ، والحرة بالفتح : الأرض الصلبة الغليظة ، والمعنى : أن الآل الذى يكون فى الضحى رفع جبالها ، فان رآها الناظر رأى أنها قد طالت وعظمت .

وإذا عَـدَت خيلٌ تُبَادِرُ غاية   فالسابق الجـالى يقودُ جِيَادَها[1]

تمت القصيدة . ويروى أن عَدِيًّا أنشدها الوليدَ وعنده كُثَيِّر، وكان قد بلغه عن عدى أنه يطعن على شعره ، ويقول : هذا شعر حجازى مقرور ، إذا أصابه قُرُّ الشام جمد وهلك . فلما أتى عدى على قوله :

وقصيدةٍ قد بتُّ أَجمعُ بينَهَا   حتى أقوِّمَ ميلَهَا وسِـنَادَهَا

قال له كثير : لو كنت مطبوعاً أو فصيحاً أو عالماً ، لم تأت فيها بميل ولا سناد ، فتحتاج إلى أن تقومها . ثم أنشد :

نَظَرَ المثقِّفِ فى كُعُوب قنَاَتِهِ   حتى يُقِيمَ ثِقَافُه مُنْآدَها

فقال كثير : لا جرم أن الأيام إذا تطاولت عليهـا عادت عوجاء ، ولأن تـكون مستقيمة لا تحتاج إلى ثقاف أجود لها . ثم أنشد :

وعَلِمْتُ حَتَّى ما أُسَائِلُ وَاحِدا   عن علم وَاحِدَةٍ لِـكَىْ أَزْدَادَها

فقال كثير : كذبت وربِّ البيت الحرام ، فليمتحنك أمير المؤمنين بأن يسألك عن صغار الأمور دون كبارها حتى يتبين جهلك ، وما كنتَ قط أحمق منك الآن حيث تظن هذا بنفسك . فضحك الوليد ومَنْ حضر ، وقُطع عَدِىّ ابن الرِّقاع حتى ما نطق .

وروى عن محمد بن المنجّم أنه قال : ما ذُكر لى أحـد فأحببت أن أراه ، فإذا رأيته أمرت بصفعه ؛ إلا عدى بن الرِّقَاع ، لقوله :

وعلمت حتى ما أسائل ... البيت . فـكنت أعرض عليـه أصناف العلوم فـكلما مر به شيء ، ولا يحسنه ، أمرت بصفعه .

---

(١) فى الأصل : وإذا عدت خيلا يبادر غاية .

فصل فى مؤلفاته

قال أبو العلاء : لزمت مسكنى منذ سنة أربعمائة ، واجتهدت على أن أتوفر على تسبيح الله وتحميده ، إلى أن أضطر إلى غير ذلك ، فأمليت أشياء ، وتولى نسخها الشيخ أبو الحسن على بن عبد الله بن أبى هاشم ، أحسن الله معونته ، فألزمنى بذلك حقوقاً جمة وأيادى بيضاء ، لأنه أفنى فِىَّ زمنه ، ولم يأخذ عما صنع ثمنه ، والله يحسن له الجزاء ، ويكفيه حوادث الزمن والأرزاء . انتهى .

وقد رتبنا أسماء هذه الكتب على حروف المعجم ، تسهيلا على المطالع . واعتمدنا فيما ذكرناه منها على ما فى « إرشاد الأريب » لياقوت ، و « كشف الظنون » لمصطفى بن عبد الله الشهير بكاتب چلبى ، وغيرهما من كتب التراجم والأخبار . وتكلمنا على ما وقفنا عليه منها بما يتسع له هذا المختصر :

(١) أدب العصفورين : رسالة ذكرها ياقوت ، وصاحب كشف الظنون .

(٢) استغفر واستغفرى : كتاب فى المنظوم ، به نحو عشرة آلاف بيت ، ويقع فى مائة وعشرين كراسة ، ذكره ياقوت ، وأهمله صاحب الكشف .

(٣) إسعاف الصديق : فى ثلاثة أجزاء ، يتعلق بكتاب الجمل فى النحو للزّجاجي المتوفى سنة ٣٣٩ . ذكره ياقوت ، وصاحب الكشف .

(٤) إقليد الغايات : كتاب لطيف ، قصره على تفسير ما جاء من اللغز فى كتابه : الفصول والغايات ، ذكره ياقوت ، وصاحب الكشف .

(٥) الأمالى : لم يذكره ياقوت ، وقال صاحب الكشف : هو مائة كراسة ولم يكمله .

(٦) الأيك والغصون : ذكره ياقوت وصاحب الكشف فى حرف الكاف فى الكتب ، ويسمى أيضاً بالهمزة والردف ؛ لأنه بناه على إحدى عشرة حالة للهمزة فى حال إفرادها وإضافتها . مثاله : سماء بالرفع والنصب والخفض ، سماء بالتنوين ، سماؤه سماءه سمائه بالحركات الثلاث مع الإضافة للضمير المذكر ، سماؤها سماءها سمائها بها مع الإضافة للمؤنث ، ثم همزة بعدها هاء ساكنة مثل : عباءة وملاءة . فإذا ضربت الإحدى عشرة فى حروف المعجم الثمانية والعشرين ، خرج من ذلك ثلاثمائة فصل وثمانية ، وهى مستوفاة فى هذا الكتاب . وذكر فيه أيضاً الأرداف الأربعة بعد ذكر الألف . ومبناه على العظات وذم الدنيا . ومقداره ألف ومائتا كراسة ، تقع فى اثنين وتسعين جزءاً كما ذكر ياقوت . وقال ابن خلكان : بلغنى أن له كتاباً سماه الأيك والغصون وهو المعروف بالهمزة والردف ، يقارب المائة جزء ، فى الأدب ؛ وحكى لى من وقف على المجلد الأول بعد المائة ، فقال : لا أعلم ما كان يعوزه بعد هذا المجلد .

(٧) بحر الزجر : يتعلق بكتاب « زجر النابح » ، ذكره ياقوت ، ولم يذكر فى كشف الظنون .

(٨) تاج الحرة : فى عظات النساء خاصة ، وتختلف فصوله ، فمنها ما يجىء بعد حرفه الذى يثبت ثبات الروى ياء التأنيث ، كقوله : شانى وتشانى وتسانى ونحوها . ومنه ما هو مبنى على الكاف نحو غلامك وكلامك . ومنها ما يجىء على تفعلين ، مثل ترغبين وتذهبين ، وأنواع هذا الكتاب كثيرة ، ويقع فى أربعمائة كراسة ، كما فى ياقوت وكشف الظنون .

(٩) تضمين الآى : لم يذكره صاحب كشف الظنون ، وقال ياقوت : هو كتاب مختلف الفصول ؛ فمنه طائفة على حروف المعجم ، وقبل الحرف المعتمد

ألف ، مثل أن يقال فى الهمزة : بناء ونساء ، وفى الباء : ثياب وعباب . ثم على هذا إلى آخر الحروف . ومنه فصول على فاعلين وعلى فاعلون وغير ذلك . والغرض أن يأتى بعد انقضاء الكلام بآية من الكتاب العزيز أو بعض آية ، وربما يجىء بآيتين . قال : والسبب فى تأليفه أن بعض الأمراء سأله أن يؤلف كتاباً برسمه ، ولم يؤثر أن يؤلف شيئاً فى غير العظات ، والحث على تقوى الله ، فأملى هذا الكتاب ، ويقع فى أربعمائة كراسة .

(١٠) تعليق الجليس : مما يتصل بكتاب الجمل للزجّاجى ، فى جزء واحد . ذكره ياقوت ، ولم يذكر فى الكشف .

(١١) تفسير خطبة الفصيح : فسّر فيه غريب كتابه خطبة الفصيح . ذكره ياقوت ، وصاحب الكشف .

(١٢) تفسير الهمزة والردف : فى جزء ، ذكره ياقوت ولم يذكر فى الكشف .

(١٣) جامع الأوزان : فيه شعر منظوم على معنى يعم به الأوزان الخمسة عشر التى ذكرها الخليل ، بجميع ضروبها ، ويذكر قوافى كل ضرب ، به تسعة آلاف بيت ، ومقداره ستون كراسة فى ثلاثة أجزاء . ذكره ياقوت ، وصاحب الكشف .

(١٤) الجلى والحلبى : هكذا ورد فى نسخة ياقوت ، وكتب مصححه : لعله « الحلى الحلبى » ، سأله فيه صديق له من أهل حلب ، يعرف بابن الحلى ، مجلد واحد ، وعشرون كراسة . ولم يذكر فى كشف الظنون .

(١٥) الحقير النافع : مختصر فى النحو . خمس كراسات ، كما فى ياقوت والكشف ، وذكره السيوطى فى بغية الوعاة .

(١٦) خادم الرسائل : فى تفسير ماتضمنته رسائله من الغريب ، سواء كانت

من الرسائل الطوال ، كالغفران والملائـكة ونحوها ؛ أو ما دونهـا . ولم يذ كر فيه إلا ما يحتاج إليه المبتدئون فى الأدب ، وسماه صاحب كشف الظنون : خادمة الرسائل .

(١٧) خطبة الفصيح : تكلم فيه عن أبواب الفصيح فى خمس عشرة كراسة ، كما فى ياقوت والـكشف ، وله تفسير غريبه ، وقد مضى ذ كره .

(١٨) خُطب الخيل : تكلم فيه على ألسنتها فى عشر كراسات ، كما فى ياقوت والـكشف .

(١٩) خماسية الراح : قال ياقوت : هو كتاب لطيف فى ذم الخمر ومعنى هذا الوسم أنه بنى على حروف المعجم ، فذ كر لـكل حرف تمـكن حركته خمس سجعات مضمومات ، وخمساً مفتوحات ، وخمساً مكسورات ، وخمساً موقوفات . يكون مقداره عشر كراسات . وتصحف اسمه على صاحب كشف الظنون بحماسة الراح ، فذ كره فى حرف الحاء .

(٢٠) دعاء الأيام السبعة : ذ كره ياقوت .

(٢١) دعاء ساعة : ذ كره أيضاً .

(٢٢) دعاء وحرز الخيل : ذ كره أيضاً .

(٢٣) ديوان الرسائل : وهى ثلاثة أقسام كالغفران والسندية ونحوها ، وسنذ كر منها ما وقفنا على اسمه . ومنها مادون تلك ، كالرسالة الإغريضية ، ورسالة المَنِيح . ومنها قصار كنحو ما تجرى به العادة فى المـكاتبة . قال ياقوت وصاحب كشف الظنون : إنهـا تقع جميعها فى ثمانمائة كراسة . وقد طبع قسم من هذه الرسائل فى بيروت وأ كسفورد ، وعندى منها نسختان مخطوطتان فى إحداهما مكاتبات جرت بينه وبين ابن أبى عمران داعى الدعاة بمصر ، وهى التى لخصها

ياقوت فى إرشاد الأريب ، وقد مضى أنه شرح رسائله فى كتابه : خادم الرسائل .

(٢٤) ذكرى حبيب : ذكره صاحب الكشف ، وقال ياقوت : إنه مختصر فى غريب شعر أبى تمام ، سأله فيه صديق له من الكتاب . مقداره ستون كراسة فى أربعة أجزاء . وقال ابن خلكان : إنه اختصر ديوان أبى تمام وشرحه وسماه : ذكرى حبيب . وفى مقدمة شرح ديوان أبى تمام للتبريزى أن أبا العلاء إنما ذكر فى هذا الكتاب الأبيات المشكلة من شعر أبى تمام متفرقة . ومن فوائده التى نقلها عنه أن شعر أبى تمام إنما أغلق ، لأنه لم يؤثر عنه ، فتناقلته الضَّعَفَةُ من الرواة ، والجهلة من الناسخين ، فبدلوا الحركة بالحركة ، وأوقعوا الناظر بما جَنَوْهُ فى أم أَدْرَاصٍ[1] وتُغُلِّسَ ، وغيّروا الأحرف بسوء التصحيف ، فغادروا الفهم خابطاً فى عشواء ؛ لأن تغيير الضمة إلى الفتحة والكسرة ، يُنْشِبُ الفطنَ فى حِبالَة ؛ فأما نقل الحاء إلى الخاء ، والدال إلى الذال ، فيحدث عنه إلباس ، ويقرن به بلادة وإشكاس .

(٢٥) الراحلة : ثلاثة أجزاء فى تفسير لزوم ما لا يلزم . ذكره ياقوت فقط .

(٢٦) راحة اللزوم : يشرح فيه ما فى لزوم ما لا يلزم من الغريب ، نحو مائة كراسة ، كما فى ياقوت والكشف .

(٢٧) الرسالة الحضية : كذا ذكرها ياقوت .

(٢٨) الرسالة الزعفرانية : ذكرها صاحب الكشف ولم يذكرها ياقوت .

(٢٩) الرسالة السندية : ذكرت فى ياقوت والكشف .

---

(١) أم أدراص : الداهية . ويقال : وقع فى وادى تغلس غير مصروف كتخيب وتهلك ، فى داهية منكرة ، والأصل فيه أن الفارات كانت تقع بكرة بغلس .

(٣٠) رسالة العروض : هكذا فى كشف الظنون ، وفى نسخة ياقوت : الفرض بالفاء ، ولعله القَرْضُ أو القريض بالقاف .

(٣١) رسالة على لسان ملَك الموت : ذكرها ياقوت ، ولا أدرى إن كانت رسالة الملائكة أو غيرها .

(٣٢) رسالة الغفران : كتبها لعلى بن منصور الحلبى المعروف بابن القارح ، جوابا على رسالة أرسلها له يذكر بها شوقه إلى لقائه ، وينحى فيها على الزنادقة ، وينتقص الوزير المغربى صديق أبى العلاء . فأجابه برسالة الغفران ، وضمنها فنونا شتى من اللغة والأدب ، ونحا فيها نحواً غريباً ، فاستطرد إلى الجنة ، فوصفها وصفا يشوق النفوس إليها ، ويرغبها فى نعيمها ، وذكر النار وأهوالها بطريقة لا تسأمها النفس . وقد طبعت هذه الرسالة بمصر سنة ١٣٢٥ ، وعندى منها نسختان مخطوطتان ، وبدار الكتب الخديوية بالقاهرة نسخة من كتب الأستاذ الشنقيطى — رحمه الله — وفى القُسْطَنْطِينِيَّةِ العظمى نسخة أخرى فى خزانة الكبريلى . وكنت فى شوق لرسالة ابن القارح المذكورة ، حتى ظفرت بها فى مجموع نفيس وقع لى .

(٣٣) رسالة الملائكة : اقتصر ياقوت وصاحب الكشف على ذكر اسمها ، وقال أبو الفضل المؤيد بن الموفق الصاحبى فى كتاب « الحكم البوالغ ، فى شرح الكلم النوابغ » : رسالة الملائكة ، ألفها أبو العلاء المعرى على جواب مسائل تصريفية ألقاها إليه بعض الطلبة ، فأجاب عنها بهذا الطريق الظريف المشتمل على الفوائد الأنيقة . انتهى . قلت : وأسلوبه فيها غريب ، افتتحها معتذراً للسائل بكبر سنه ، وبُعد عهده بالمسائل النحوية والصرفيـة ، وقربه من الموت . ثم بدأ فى الجواب فقال : « أَفَتُرانِى أدافع مَلَكَ الموت ، فأقول : أصل ملك مألك .. الخ » فساق هذا

البحث فى مناقشته مع الملَك ، وأتى بشواهد من كلام العرب ، إلى أن انتقل إلى بحث آخر ، فقال : « فيقول المَلَك : مَن ابن أبى ربيعة وأبو عبيدة ، وما هذه الأباطيل ؟ إن كان لك عمل صالح فأنت سعيد ، وإلا فاخسأ وراءك ، فأقول : فأمهلنى حتى أخبرك بوزن عزرائيل ، وأقيم الدليل على أن الهمزة فيه زائدة . . . الخ » ثم انتقل إلى ناكر ونكير ، فباحثهما عن اسميهما ، وهكذا حتى أتم الإجابة عن الأسئلة فى هذا السياق العجيب . وعندى من هذه الرسالة نسخة مخطوطة ضمن مجموع ، وبدار الكتب الأزهرية بالقاهرة أخرى ، وقد أوردها السيوطى تمامها فى كتابه الأشباه والنظائر النحوية .

(٣٤) رسائل المعونة : وهى التى كتبها على لسان غيره ، ذكرها ياقوت وصاحب الكشف .

(٣٥) رسل الراموز : نحو ثلاثين كرّاسة . ذكره ياقوت .

(٣٦) الرياش المصطنعى : فى شرح مواضع من الحماسة الرياشية ، ألّفه للأمير مصطنع الدولة أبى غالب كليب بن على ، وكان أنفذ إليه نسخة من هذه الحماسة ، وسأله أن يخرج على حواشيها شيئاً مما لم يذكره أبو رياش ، فخشى أن تضيق الحواشى عن ذلك ، فصنع هذا الكتاب فى أربعين كراسة . ذكر فى ياقوت والكشف .

(٣٧) زجر النابح : يتعلق بلزوم مالا يلزم ، وذلك أن بعض الجهال تكلم على أبيات من لزوم مالا يلزم ، يريد بها التشرّر والأذيّة ، فألزم أبا العلاء أصدقاؤه بإنشائه ، فأنشأه وهو كاره . مقداره أربعون كراسة فى جزء واحد . ذكره ياقوت وصاحب الكشف . وله كتاب يتعلق بهذا ورد اسمه فى نسخة ياقوت « بحر الزجر » وقد مضى ذكره .

(٣٨) السادن : أنشأه فى تفسير غريب كتابه الفصول والغايات ، وما فيه من اللغز . مقداره عشرون كراسة . ذكره ياقوت وصاحب الكشف .

(٣٩) السجعات العشر : موضوع على كل حرف من حروف المعجم عشر سجعات فى المواعظ . ذكره ياقوت وصاحب الكشف .

(٤٠) سجع الحمائم : تكلم فيه على لسان حمائم أربع ، وكان بعض الرؤساء سأله أن يصنف له تصنيفا يذكره فيه ، فأنشأ هذا الكتاب ، وجعل مايقوله على لسان الحمامة فى العظة والحث على الزهد . مقداره ثلاثون كراسة ، فى أربعة أجزاء . ذكر فى ياقوت والكشف .

(٤١) السجع السلطانى : يشتمل على مخاطبات الملوك والوزراء وغيرهم من الولاة ، سأله فيه بعض مَنْ خدم السلطان ، وارتفعت طبقته ، ولم يكن له قدم فى الكتابة ، فطلب أن يُنْشَأَ له كتاب مسجوع من أوله إلى آخره ، ولا يشعر بما يريد ، لقلة خبرته بالأدب . فألف له هذا الكتاب . قال ياقوت : فى أربعة أجزاء ؛ وقال صاحب الكشف : إنه ثمانون كراسة .

(٤٢) سجع الفقيه : جزء فى ثلاثين كراسة . ذكره ياقوت وصاحب الكشف .

(٤٣) سجع المضطرين : كتاب لطيف ، عمله لرجل تاجر مسافر ، يستعين به على أمور دنياه . ذكره ياقوت وصاحب الكشف .

(٤٤) سقط الزند : وهو ديوان يشتمل على أكثر من ثلاثة آلاف بيت ، ضمنه شعره فى صباه . وسمّاه بذلك لأن السقط أول نار تخرج من الزَّنْد ، فشبه شعره الأول به . قال التبريزى : لما حضرت أبا العلاء ، قرأت عليه كثيراً من كتب اللغة ، وشيئاً من تصانيفه ، فرأيته يكره أن يُقرأ عليه شعره فى صباه ،

الملقّب بسقط الزَّنْد ، وكان يغير الكلمة بعد الكلمة منه إذا قرئت عليه ، ويقول معتذراً عن تأبّيه ، وامتناعه من سماع هذا الديوان : مدحت نفسى فيه ، فلا أشتهى أن أسمعه . وكان يحثى على الاشتغال بغيره من كتبه . انتهى . ولهذا الديوان شروح ، أولها شرح لأبى العلاء نفسه سماه (ضوء السقط) وهو غير وافٍ ، نقله عنه التبريزى ، وأوضح مشكلاته ، وذكر اللغة الغريبة ، واقتصر فى تفسير المعانى على ما لا بد منـه . ثم تناوله أبو يعقوب يوسف بن طاهر النحوى ، فأصلحه وزاد فيه ، وسماه : « التنوير » وطبع بمصر غُفْلاً من اسم مؤلفه . ومن شروح هـذا الديوان شرح الفخر الرازى ، و « ضرام السقط » لمجد الدين أبى الفضل قاسم بن حسين بن محمد الخوارزمى المشهور بصدر الأفاضل النحوى ، وقفت على نسخة منـه فى خزانة آل رفاعة بالقاهرة . و « الزوائد » لأبى رشاد الإخسيكتى ، و « العمدة » لابن البارزى ، وشرح ابن السِّيد البَطَلْيَوْسِىّ وهو عزيز الوجود ، وقعت لى منه أوراق من نسخة قديمة ، فإذا به شرح على ديوان ممزوج من سقط الزند واللزوميات . وقد انتقد أبو بكر بن العربى على مواضع منه ، فردَّ عليه ابن السِّيد فى رسالة لطيفة ، وقفت عليها وهى عندى . وللشيخ تاج الدين بن عبد الرحمن شرح على قصيدة لامية من هذا الديوان مطلعها :

* ألا فى سبيل المجد ما أنا فاعل *

سماه : « مراقى العلا ، فى شرح لامية أبى العلا » وهو عندى فى مجموع .

(٤٥) سيف الخطيب : هكذا فى الـكشف ، وفى ياقوت «سيف الخطبة» . وهو جزءان ، يشتمل على خطب السنَة ، فيه خطب للجمع والعيدين والخسوف والـكسوف والاستسقاء وعقد النـكاح ، وهى مؤلفـة على حروف من حروف المعجم ، فيها خطب عمادها الهمزة ، وخطب بنيت على الباء ، وخطب على الدال ،

وعلى الراء ، وعلى اللام ، وعلى الميم ، وعلى النون ، وتركت الجيم والخاء وما يجرى مجراهما ؛ لأن الكلام المقول فى الجماعات ينبغى أن يكون سَجْسَجًا[1] سهلا . مقداره أربعون كراسة . وكان سأله فيه رجل من المتظاهرين بالديانة .

(٤٦) شرح الرسالة الإغريضية : لم يذكره ياقوت ، وذكره صاحب الكشف . مقداره عشرون كراسة . وللشيخ إبراهيم الفصيح بن صبغة الله الحيدرى ، من علماء أواخر القرن الثالث عشر ، شرح على الرسالة الإغريضية ، سماه : النوادر الحكمية والأدبية ، ألّفه برسم مصطفى باشا بن إبراهيم بن محمد على والى مصر ، وتوجد منه نسخة مخطوطة بدار الكتب الخديوية بالقاهرة .

(٤٧) شرح كتاب سيبويه : فى النحو ، فى خمسين كراسة ، ولم يتمه . كما فى ياقوت والكشف و بغية الوعاة .

(٤٨) شرف السيف . قال ياقوت : عمله لنشتكين الدرزى الذى كان مقيما بدمشق ، والسبب فيه أنه كان يوجه إلى أبى العلاء بالسلام ، ويحفى المسألة عنه ، فأراد جزاءه على ما فعل . وهو فى جزءين . وفى كشف الظنون : « شرف السلف عشرون كراسة عمله لأمير الجيوش » .

(٤٩) الصاهل والشاحج : يتكلم فيه على لسان فرس و بغل ، مقداره أربعون كراسة ، صنفه لأبى شجاع فاتك الملقب بعزيز الدولة والى حلب من قبل المصريين ، وكان روميا . ذكره ياقوت ، وصاحب الكشف فى الرسائل . وفى خطط المقريزى ج ٢ ص ١٥٤ رواية رواها أبو العلاء فى الصاهل والشاحج ، للبيتين : زر وادى القصر . . . الخ .

والشاحج : البغل ؛ وشَحيجه ، وشُحَاجُهُ : صوته .

---

(١) السجسج : الذى بين الصلابة واللين . والهواء السجسج : ليس بحار ولا بارد .

(٥٠) ضوء السقط : فسر فيه غريب ديوانه سقط الزند ، مقداره عشرون كراسة . ذكره ياقوت وصاحب الكشف وابن خلكان . وقد فَصَل بعضهم الدرعيّات من سقط الزند ، وطبعها على حدة فى بيروت ، وسماها : ضوء السقط ، وهو خطأ ينبغى أن يُتَنَبَّه له .

(٥١) الطَّلّ الطاهرى : أنشأه لرجل يعرف بأبى طاهر . ذكره ياقوت ، ولم يذكر فى الكشف .

(٥٢) ظهير العضدى : يتصل بالكتاب المعروف بالعضدى فى النحو . ذكره ياقوت وصاحب الكشف والسيوطى .

(٥٣) عبث الوليد : يؤخذ من عبارة ابن خلكان أنه اختصر فيه شعر البحترى وشرحه ، واسم الكتاب لا يدل على ما قال . وقال غيره : إنه يتضمن أغاليط البحترى . وقال ياقوت : إنه يتصل بشعر البحترى ، وكان سبب إنشائه أن بعض الرؤساء أنفذ نسخة ليُقَابَل بها ، فأثبت ما جرى من الغلط ليعرض ذلك عليه . وهو جزء واحد فى عشرين كراسة . أقول : قد وقعت لى نسخة من هذا الكتاب ، فوجدتها كما قال ياقوت، والخطأ الذى يذكره أبو العلاء تارة يكون من النسخة المرسلة إليه ، وتارة من الناظم نفسه ؛ ولهذا سماه بعبث الوليد تورية باسمه ، لأن البحترى اسمه الوليد . والوليد أيضاً : الصبى ، فكأنه قال : لعب الصبى وخلطه . ورتب فيه الأبيات التى تعرض لها على حروف المعجم باعتبار قوافيها ، وله فيه فوائد وآراء ؛ كقوله فى بيت البحترى فى وصف فرس :

أخواله للرُّسْتَمِينَ[(١)] بفارس وجدوده للتُّبَّعَيْنِ بِمَوْكَلِ[(٢)]

---

(١) رستم : بضم الراء وسكون السين وفتح المثناة الفوقية ، وقد تضم .

(٢) موكل موضع ، ولا نظير له إلا مورق اسم ملك للروم وموزن وموهب وموظب =

قال : يروى الرُّسْتَمِينَ على الجمع وكذلك التُّبَّعِين ، ويروى بالتثنية ، والجمع أشبه ؛ لأنه قال أخواله فجَمَعَ ، وكذلك قال جدوده . فأَنْ تكون الأخوال والجدود لملوك كثيرة أشبه من أن تكون لملكَيْن . انتهى كلامه . قلت : وقد يقال أيضاً فى ترجيح ما رجَّحه أن لا وجه لتخصيص اثنين من تبابعة اليمن بالذكر ؛ لأنه لم يسمع عن اثنين مخصوصين منهم امتازا بشهرة تصرف إليهما الأذهان ، إذا ذكر التُّبَّعان ، وما يقال فيهما يقال فى الرستمين ، فرواية الجمع أرجح وأقرب إلى الصواب .

(٥٤) عظات السور : ذكره ياقوت ، ولم يتكلم عليه .

(٥٥) العظة والزهد : لم يذكره ياقوت ، وذكره صاحب الكشف فى حرف الكاف فى الكتب ، وقال : مائة وعشرون كراسة .

(٥٦) عون الجُمَل : قال ياقوت : يتصل بكتاب الزَّجَّاجى ، عمله لأبى الفتح محمد بن على بن أبى هاشم ، وهو آخر شىء أَمْلاَه ، وفى كشف الظنون أنه شرح لشواهد جُمَل الزَّجَّاجى لم يتم ، وكذلك فى بغية الوعاة للسيوطى .

(٥٧) الفصول : لم يذكره ياقوت ، وذكره صاحب الكشف فقال : إنه غير الفصول والغايات ، وهو أربعمائة كراسة .

(٥٨) الفصول والغايات : هو الكتاب الذى زعم شَانِئُوه أنه عارض به القرآن الكريم ، وسماه الفصول والغايات فى معارضة السور والآيات ، وسنشبع القول فى هذا الزعم عند الكلام على معتقده . وليس فى هذا الكتاب إلا عظات ونصائح ، والمراد بالغايات القوافى ؛ لأن القافيـة غاية البيت أى منتهاه ، وهو

= وموحد ، والقياس فيما كانت فاؤه حرف علة أن يكون المفعل منه مكسور العين ، مثل موعد ومورد ، ولكن جاءت هذه شاذة .

موضوع على حروف المعجم ما خلا الألف ؛ لأن فواصله مبنيـة على أن يكون ما قبل الحرف المعتمد فيها ألف ، ومن المحال أن يجمع بين ألفين . ولـكن تجىء الهمزة وقبلها ألف ، مثل العطاء والـكساء ، وكذلك الشراب والسراب فى الباء ، ثم على هذا الترتيب ، وليست حروفه المبنى عليها مستوية الإعراب ، بل تجىء مختلفة ، وفيها ما يجىء على نسق واحد . وقيل : إنه بدأ فيه قبل رحلته إلى بغداد وأتمه بعـد عوده إلى المعرة ، ومقداره مائة كراسة . ذكره ياقوت وصاحب الـكشف . ويتعلق بهذا الـكتاب : إقليد الغايات ، والسادن ، وقد مر ذكرهما .

(٥٩) فضائل أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، كرم الله وجهـه . ضمنه بعض فضائله . ذكره ياقوت فقط .

(٦٠) قاضى الحق : يتصل بكتاب الـكافى فى النحو لأبى جعفر النحاس المتوفى سنة ٣٣٨ . ذكر فى ياقوت والـكشف .

(٦١) القائف : ذكره صاحب الـكشف فى حرف الـكاف فى الـكتب ، وسقط من نسخة ياقوت المطبوعة ، إلا أن فى كلامه على كتابه المسمى بمنار القائف دلالةً على أن له كتاباً بهذا الاسم .

(٦٢) اللامع العزيزى ، فى شرح شعر المتنبى ، صنّفه للأمير عزيز الدولة ابن تاج الأمراء أبى الدوام ثابت بن ثمال ، مقـداره مائة وعشرون كراسة . ذكره ياقوت وصاحب الـكشف وابن خلـكان وغيرهم ، ومنـه نسخة بخزانة لا له لى بالقسطنطينية رقمها (١٨٢٥) .

(٦٣) لزوم ما لا يلزم : هو ديوان كبير مرتب على حروف المعجم ، يذكر كل حرف بوجوهه الأربعة : الضمة والفتحة والـكسرة والسكون . ومعنى لزوم ما لا يلزم أنه يلتزم قبل الروى حرفاً إذا غُيِّر لم يكن مخلاً بالنظم . قال فى خطبته :

إنه ذكر فيه ما هو تمجيد لله الذى شرف عن التمجيد ، أو تذكير للناسين ، وتنبيه للغافلين ، أو تحذير من الدنيا ؛ فإن جاوز المشترط ، فإن الذى جاوز إليه قول عرىّ من المين . وهو أحد كتبه التى تكلموا فيها ، وسنفصل القول فيه عند الكلام على معتقده وشعره . طبع بالهند سنة ١٣٠٣ وبمصر سنة ١٨٩١ — ١٨٩٥ ميلادية . وكان الأديب الفاضل الشيخ أحمد الفحماوى النابلسى ، نزيل مصر رحمه الله تعالى ، مشتهرا بكتابة نسخ من هذا الكتاب ، يتحرى فيها الصحة ، ويطرزها بالحواشى المفيدة ، ثم يبيع النسخة بعشرين ديناراً مصرياً ، فيتنافس فى اقتنائها أعيان مصر وسراتها ، وعندى منها نسختان . ووقعت لى نسخة مخطوطة من مختصر له ، اسمه : مختار لزوم ما لا يلزم ، تنقص أوراقا من أولها ، ويبتدئ ما فيها من أثناء قافية الباء المضمومة ، ولذهاب أولها لم أقف على اسم مؤلفها . ولأبى العلاء شرح عليه سماه : راحة اللزوم ، وله أيضاً : زجر النابح ، وبحر الزجر ، والراحلة . وكلها تتعلق باللزوميات ، وقد مضى ذكرها .

(٦٤) مبهج الأسرار : لم يذكره ياقوت ، وقال صاحب كشف الظنون : لأبى العلاء ، ولم يقل المعرى ، واسم الكتاب يدل على أنه لغيره .

(٦٥) مثقال النظم : فى العروض . ذكره ياقوت والسيوطى فى بغية الوعاة .

(٦٦) مجد الأنصار ، فى القوافى . ذكره ياقوت .

(٦٧) المختصر الفتحى : يتصل بكتاب محمد بن سعدان ، صنّفه لرجل يكنى أبا الفتح محمد بن على بن أبى هاشم ، وكان أبو هذا الرجل تولى إثبات ما ألّفه أبو العلاء من جميع كتبه ، فألزمه بذلك حقوقاً جمة ، وأيادى كثيرة . كذا ذكر ياقوت .

(٦٨) معجز أحمد : لم يذكره صاحب الكشف ، ويذهب بعضهم إلى أنه هو اللامع العزيزى فى شرح شعر المتنبى . ويستفاد من عبارة ابن خلكان أنه غيره ، وأن أبا العلاء اختصر ديوان المتنبى ، وتكلم على غريبه ، وذكر سرقاته وما أخذ عليه فى هذا الكتاب . ومن فوائده التى ذكرها فيه ، ونقلها عنه أصحاب البديع ، استنباطه لنوع من البديع سماه « الطاعة والعصيان » عند كلامه على قول المتنبى :

يردّ يداً عن ثوبها وهو قادر ويعصى الهوى فى طيفها وهو راقد

فزعم أنه أراد أن يقول وهو مستيقظ ليطابق بينه و بين راقد ، ولما عصاه الوزن عدل عنه إلى قادر ، وفيه معنى مستيقظ وزيادة ، فأطاعه التجنيس المقلوب بين قادر وراقد ، وعصته المطابقة بين رافد ومستيقظ . ورد عليه زكى الدين بن أبى الإصبع بأنْ ليس فى البيت شىء من ذلك ، لإمكان أن يقول وهو ساهر بدل قادر . انتهى . وجلّ من أتى بهذا النوع من أصحاب البديعيات ، لم تسلم أبياتهم من مثل هذا النقد .

(٦٩) ملقى السبيل : مختصر فيه نظم ونثر ، ذكره ياقوت وصاحب الكشف ، ووقعت لى نسخة منه ، فوجدته فى المواعظ مرتباً على حروف المعجم ، يذكر فى كل حرف فقرات من النثر ، ثم يتبعها بأبيات من القافية ؛ كقوله فى حرف الحاء : إن ابن آدم شحيح ، سوف يمرض من القوم صحيح ، يعصف بعقله الريح ؛ إن ذلك لهو التبريح .

يأيها الممسك الشحيح سيمرض السالم الصحيحُ
ما لك لم تنتفع بعقل هل عصفت بالعقول ريحُ
إن شُيِّد القصر فى سرور فبعده يُحفر الضَّريحُ

ويَطرح الهمّ بالمنايا مَنْ جسمُه فى الهوى طريحُ

(٧٠) منار القائف : فى تفسير ماجاء من اللغز والغريب فى كتابه القائف ، مقداره عشر كراريس . ذكره ياقوت .

(٧١) المواعظ الست : ذكره ياقوت وصاحب الكشف ، ومعنى هذا الاسم أن الفصل الأول منه فى خطاب رجل ، والثانى فى خطاب اثنين ، والثالث فى خطاب جماعة ، والرابع فى خطاب امرأة ، والخامس فى خطاب امرأتين ، والسادس فى خطاب نسوة . فى خمس عشرة كراسة .

(٧٢) نشر شواهد الجمهرة : لم يذكر فى الكشف ، وقال ياقوت : إنه فى ثلاثة أجزاء ، ولم يتم .

(٧٣) نظم السور : ستة كراريس ، ذكره صاحب الكشف ، وجاء فى نسخة ياقوت : تظلم السور ، بالمثناة الفوقية ، ولعله تحريف .

(٧٤) وقعة الواعظ : هكذا فى نسخة ياقوت ، وقال مصححه : لعله برقعة الواعظ ، ولم يذكره صاحب كشف الظنون .

***

وله سوى ذلك كتب فى العروض والشعر بدأبها ولم تتم . ورأيت بعض العصريين ينسب إليه كتابا اسمه الفصوص ، ويزعم أنه سقط منه فى الدجلة ، وهو يحمله إلى أحد الأمراء ببغداد ، فقال فيه بعض الشعراء :

قدْ غاص فى النهر كتاب الفصوص وهكذا كل ثقيل يغوص

فأجابه أبو العلاء بقوله :

عاد إلى معدنه إنما توجد فى قعر البحار الفصوص

والصواب أن هذا الكتاب لأبى العلاء صاعد اللغوى البغدادى ، أحد

الراحلين إلى الأندلس ، وبها ألفه ، ووقعت له هذه القصة . وسببها أنه استأذن من المنصور بن أبى عامر فى إملاء كتاب بجامع مدينة الزهراء ، يفوق أمالى أبى على القالى التى أملاها بقرطبة فى دولة عبد الرحمن وابنه الحكم ، واشترط أن لا يورد فيه خبراً أورده القالى . فأذن له فى ذلك ، فأملى كتاب الفصوص ، ولما أكمله تتبعه أدباء الوقت ، فلم تمرّ فيه كلمة صحيحة عندهم ، ولا خبر ثبت لديهم . وكان صاعد متهماً بالكذب جريئاً عليه ، فأراد المنصور امتحانه ، فعمد إلى كراريس بيض وأمر أن تجلّد وتُزال جدّتها حتى يتوهم فيها القدم ، وترجم عليها كتاب النكت تأليف أبى الغوث الصنعانى ، فترامى إليه صاعد حين رآه ، وجعل يقبله ، ويقول : إى والله ، قرأته بالبلد الفلانى على الشيخ أبى فلان ، فأخذه المنصور من يده خوفاً من أن يفتحه ، وقال : إن كنت قد قرأته كما تزعم ، فعلام يحتوى ؟ فقال : وأبيك لقد بعد عهدى به ، ولا أحفظ الآن منه شيئاً ، ولكنه يحتوى على لغة منثورة لا يشوبها شعر ولا خبر ، فقال له المنصور : أبعد الله مثلك ، فما رأيت أكذب منك . وأمر بإخراجه وإلقاء كتاب الفصوص فى النهر ، فقال فيه بعض الشعراء ، وأجابه صاعد بما تقدم .

قال ابن بسام : وما أظن أحداً يجترئ على مثل هذا ، وإنما صاعد اشترط ألا يأتى إلا بالغريب غير المشهور ، وأعانهم على نفسه بما كان يتنفق به من الكذب . انتهى .

ومن جراءته على الكذب نادرته فى الخنفشار ، وذلك أن المنصور سأله يوماً عنه ، فقال على البديهة : هو حشيشة يعقد بها اللبن ببادية الأعراب ، وفى ذلك يقول شاعرهم :

لقد عقدت محبتها بقلبى   كما عقد الحليب الخنفشار

ورواية هـذه اللفظة بالخاء المعجمة والفاء هو المشهور فى كتب الأدب والتاريخ ، وقد رويت بالباء الموحدة فى نسختى نفح الطيب المطبوعتين بمصر ، ووردت فى التى طبعت بأوربا بالحاء المهملة والباء الموحدة ، ورواية البيت فيها :

لقـد عُقِدت محبتُهـا بقلبى كما عُقِدِ الحليبُ بحنبشار

إلا أن المصحح ذكر بالحاشية ورودها فى بعض النسخ بالخاء المعجمة والباء الموحدة ؛ وفى أخرى بالخاء أيضا والفاء ، وهو الصواب على ما ترجح عندى ، وما عداه محرّف عنه . وسببه أن صاحب نفح الطيب تلمسانىّ كما هو معلوم ، وقاعدة المغاربة فى الكتابة نقط الفاء بنقطة من تحت ، فيظهر أن نسخة الأصل كتبت بخط مغربى ، وطمس الكاتب رأس الفاء ، فظهرت بصورة الباء لمكان النقطة التحتية ، وتصحيف الخاء المعجمة بالحاء المهملة قريب . وإنما رجحت هذا الوجه ؛ لاشتهاره فى سائر الكتب كما ذكرت آنفا . ويجوز أن يكون الصواب فى أحد الوجهين الآخرين ، إلا أن مثل هذا لا يثبت إلا بنص ، ولم أقف على نص فيـه . والخطب أسهل من أن نطيل فيه الكلام ؛ لأن الظاهر من مفاد القصة أن الكلمة مخترعة . والله أعلم .

فصل فى ثروته وزهده

قد علمت مما تقدم أن أبا العلاء كان من بيت ثراء وغنى ، والمتبادر فى مثله أن يكون مثريا كأهله ، ولـكنك لو تتبعت بقية أخباره ، وأنعمت النظر فى أقواله عن نفسه ، سواء كانت نثراً أو شعراً ، ظهر لك أنه كان على العكس من ذلك . وحسبك تصريحه فى إحـدى رسائله إلى داعى الدعاة ، بأن الذى له فى السنة نيّف وعشرون ديناراً يشاركه خادمه فى معظمها . وسيمر بك فى هذا الفصل شىء من أشعاره المنبئة عن إملاقه وحاجته . والحقيقة المزيلة لِلَّبس أنه كان على شىء من الثروة نـكب فيه قبل قفوله من بغداد ، فعاش بعد ذلك فى كفاف ، بدليل قوله :

أثارنى عنكمُ أمران والدةٌ لم ألقها وثراءٌ عاد مسفوتَا[1]

أحياهما الله عصر البين ثم قضى قبل الإياب إلى الذُّخْرين أنْ مُوتَا

يعنى : أحيا الله والدتى ومالى وأنا بعيد عنهما ، فلما أزمعت الإياب قضى على الوالدة بالموت ، وعلى المال بالضياع .

على أنه كان على فقره قنوعا عيوفا كبير النفس ، يضرب فى علو الهمة بسهم وافر ، لم يسمع أنه استماح أحداً ، أو مدح طمعاً فى نوال ، ومن قوله فى خطبة سقط الزند : « ولم أطرق مسامع الرؤساء بالنشيد ، ولا مدحت طلباً للثواب ، وإنما كان ذلك على معنى الرياضة ، وامتحان السُّوس[2] ، فالحمد لله الذى ستر بغُفَّةٍ[3] من

(١) المسفوت : القليل البركة .

(٢) السوس : بالضم الطبيعة .

(٣) الغفة ، بالضم : البلغة من العيش .

قَوَام العيش ، ورزق شعبة من القناعة أوفت على جزيل الوفر . ومن غرر أقواله في ذلك :

وإني تيممت العراق لغير ما تيممه غَيْلَان عنـــد بلال
فأصبحت محسوداً بفضلي وحده على بعـد أنصاري وقلّة مالي

غَيْلَان هو ذو الرُّمَّة ، كان قصد بلال بن أبي بُرْدَة بن أبي موسى الأشعري مستميحاً ، وفيه يقول :

سمعتُ : الناسُ ينتجعون غيثا فقلت لصَيْدَحَ : انتجعي بلالا

وصَيْدَح اسم ناقته ، والرواية في الناس بالرفع على الحكاية ؛ لأنه سمع من يقول : الناسُ ينتجعون غيثا ، فحكى ماسمع ، جزم بذلك المبرّد ، وعدّ الحريري النصبَ من الأوهام ، وذهب غيرهما إلى أنه يجوز .

وقال أبو العلاء يصف حاله ببغداد :

تمنّيت أن الخمر حلّت لنشوة تُجهّلني كيف اطمأنت بي الحال
فأذهل أني بالعراق على شَفَى رزيّ الأماني لا أنيس ولا مال
مُقلّ من الأهلَيْنِ يُسْرٍ وأُسْرَةٍ كفى حَزَنًا بَيْنٌ مُشِتٌّ وإقلال
وكم ماجد في سِيفِ دجلة لم أَشِمْ له بارقا والمرء كالمزن هطّال(١)
من الغرّ تَرّاكُ الهواجر مُعْرِضٌ عن الجهل قذّاف الجواهر مفضَال
سيطلبني رزقي الذي لو طلبته لما زاد ، والدنيا حظوظ وإقبال

وقال أيضاً :

رحلتُ لم آتِ قِرْوَاشًا أُزَاوله ولا المهذَّبَ أبغي النَّيْلَ تقويتا
والموت أحسن بالنفس التي ألفت عِزَّ القناعة عن أَنْ تسأل القوتا

---

(١) السيف ، بالكسر : الساحل .

قِرواش كان والياً ببغداد ، والمهذب وزيره . وروى أن المستنصر الفاطمى خليفة مصر بذل له ما فى بيت مال المعرة من الحلال ، فلم يقبل منه شيئاً ، وقال :

لا أطلب الأرزاق والـمَوْلى يفيض علىّ رزقى
إن أُعْطَ بعض القوت أعـلم أن ذلك فوق حَقِّى

ويعجبنى قوله فى لزوم مالا يلزم :

وكأنمـا الدنيا كَعَابٌ أَيِّنًا رَجِّى لها صِـلَةً فذاك يَسَارُ
وإذا الفتى لحظ الزمانُ بعينه هان الشقاء عليـه والإعسار

وقوله :

نوائب ألقت فى النفوس جراحها عصى كل آسٍ فى البرية سبْرُهَا
لِىَ القوت فليَغْمر سَرَنْدِيبَ حَظُّهَا من الدُّرِّ أو يَكْثُرْ بغانَةَ تِبْرُهَا

سرنديب جزيرة قرب الهند ، فيها مغاوص لِلُّؤلؤ ، وتسمى اليوم سيلان ، وغانَة مدينة كبيرة فى جنوبى بلاد المغرب ، هى مدخل بلاد التِّبْر كما فى ياقوت ، وتطلق اليوم على أرض واسعة فى غربى قارة إفريقية ، تقاسمها الإفرنج بينهم ، واسمها فى لغتهم (Guinée) جينا بالإمالة ، أو : غينا ، والأصل فيه غانة ؛ كما قدمنا ، والرجوع إليه أولى . ويطلق الإفرنج هـذا الاسم أيضا على أول دينار إنجليزى ضرب من الذهب المستخرج من هذه الجهة ، وأبطل الإنجليز التعامل به من سنة ١٨١٧ ميلادية ، واستعاضوا عنه بدينارهم المسمى (Souverain) سوفران ، ومن هذا تعرف سبب تسمية المصريين كل دينار بالجنيه ، وكان الصواب أن يسموه بالغانى ، إن أرادوا النسبة إلى تلك الجهة ، وإلا فالرجوع إلى الدينار أولى .

وكان شأن أبى العلاء فى الزهد والتقشف والإعراض عن الدنيا شأنا عجبا ، ولا يذهبن بك الظن فتتوهم أن للفقر مدخلا فى زهده ، فإن من تُبذَلُ له الخزائن ،

وتُعرَض عليه الصلات ، لا تستعصى عليه غاية من الغايات ، ولكنه نظر إلى هذا المتاع الزائل نظر مَنْ لم يُلهه زخرفه عن استطلاع حقيقته ، فصدّ عنه وزهد فيه جملةً ، وأخذ نفسه بالرياضة والخشونة ، والإعراض عن العرض الفانى ؛ فكان لباسه القطن ، وفراشه اللِّبْد ، وحصيرُه برديّة ، وطعامه الفول والعَدَس ، وحلاوته التين ، وفيه يقول :

يقنعنى بُلْسُنٌ يُمَارِسُ لِى	فإن أتتنى حلاوة فبَلَسْ[1]
فَلُسٌ ما اخترتَ إنَّ أروح من	يسار قارون عفَّة وفلَسْ[2]

وسنورد مختار شعره فى الزهد ، متى وصلنا إلى الكلام على منظومه ، كما أننا سنشبع القول فى سبب تجافيه عن أكل الحيوان ، عند الكلام على معتقده .

وكان رحمه الله ، على عوزه ورقة حاله ، بذولا لما عنده ، غير مانع معروفا عن مستحق ، يتكلف فى ذلك ما استطاع . بَلَغَهُ مَرَّةً أن شاعراً يلقب بصريع البَيْن ساءت به الحال ، فأنفذ إليه قدراً من الدراهم ، وأتبعها بقصيدة يقول فيها :

قد استحييت منك فلا تكِلنى	إلى شىء سوى عذر جميل
وقد أنفذت ماحق عليه	قبيح الهجو أو شتم الرسول
وذاك ، على انفرادك ، قوت يوم	إذا أنفقت إنفاق البخيل
فكيف وأنت عُلوىّ السّجايا	فليس إلى اقتصادك من سبيل

إلى أن يقول :

فإن يك مابعثتُ به قليلا	فلى حال أقل من القليل

وحدث للقاضى أبى محمد عبد الوهاب بن على بن نصر الفقيه المالكى المشهور

(١) البلسن بالضم : العدس ، والبلس بالتحريك : التين .
(٢) اللس : الأكل .

ضيق وشدة ، وهو ببغداد ، فلم ير بُدًّا من الرحيل عنها ، وخرج لتشييعه يوم فَصَلَ جمع من أكابرها ، وطوائف كثيرة من أهلها ، وما فيهم إلا متوجع لفراقه ، أو آسف على فوات الاستفادة من علمه ، فقال لهم عند الوداع : لو وجدت بين ظَهْرَانَيْكُمْ رغيفين كل غداة وعشيّة ما عدلت عن بلدكم . فلم تحرك مقالته واحداً منهم ، يتكفل له بما طلب ؛ فسار عنهم قاصداً مصر ، واجتاز بمعرة النعمان ، وبها يومئذ أبو العلاء ، فأضافه واحتفى به ، وفيه يقول :

والمالكىّ ابن نصر زار فى سفر ... بلادنا فحمدنا النأى والسفرا
إذا تفقه أحيا مالكا جدَلًا ... وينْشرُ الملكَ الضِّلِّيلَ إن شَعَرَا[1]

ثم حباه عند رحيله بثلاثين درهما ، وخاطبه معتذراً بقوله :

أَيَبْسُطُ عذرى منعم أم يخصنى ... بما هو حظى من أليم عتاب
قبول الهدايا سُنَّةٌ مستحبَّة ... إذا هى لم تسلك طريق تحاب
فياليتنى أهديت خمسين حِجَّةً ... مضت لىَ فيها صحتى وشبابى
وقَلَّتْ له فاترك ثلاثين أسوداً ... متى ما تُكَشَّفْ تُلْفَ غيرلُبابِ
إذا أسكت المحتجّ كلّ مناظر ... فعند ابن نصر نجدة بجواب
وما أنا إلا قطرة من سحابة ... ولَو أننى صَنَّفت ألفَ كتاب
وبين يديه كفر طاب وإنْسُها ... يعيش لفقد الماء عيش ضِباب
لعل الذى أنفذتُ يكفيه ليلة ... لإسباغ طهر حان أو لشراب

يقول : لعل هذه الدراهم القليلة ، وإن كانت سوداء غير خالصة الفضة ، تكفى الشيخ لأن يشترى بها قليلا من الماء لطهره أو لشرابه ؛ فإنه معرج على كفر طاب ، وهى قليلة الماء ، وأهلها يعيشون بها عيش الضِّبابِ ، وإنما خص الضِّبابَ

---

(١) الملك الضليل : امرؤ القيس .

بالذكر ؛ لأنها تصبر على العطش . وبعض المحققين من أهل عصرنا يرى أن كفر طاب هى البلدة المسماة الآن بإدْلِب ، وهى قَصبة قضاء باسمها ، من لواء حلب . ولم تزل قليلة الماء . وفيها يقول أبو العلاء فى لزومياته :

أرى كفر طاب أعجز الماء حفرها ... وبَالِسَ أغناها الفُرَات عن الحفر[1]

كذلك مجرى الرزق ، وَادٍ بلا ندًى ... ووادٍ به فيض وآخر ذو جَفْر

ولما وصل القاضى عبد الوهاب المذكور إلى مصر ، أقبلت عليه الدنيا ، وانهالت عليه صلات الأمراء ، ولكنه لم يتمتع بشىء منها ، بل مات عقب وصوله من أكلة اشتهاها ، وسمعوه يقول وهو يتقلب ويتململ : لا إله إلا الله ، إذا عشنا متنا . وهو القائل فى بغداد :

بغداد دار لأهل المال طيبة ... وللمفاليس دار الضنك والضيق

ظللت حيران أمشى فى أزقتها ... كأننى مصحف فى بيت زنديق

---

(١) بالس كصاحب : بلدة بشط الفرات .

فصل فى بقية أخباره

لما دخل أبو العلاء بغداد أقبل عليه علماؤها وأدباؤها ، معجَبين بفطنته ، وسعة علمه . واختص بصحبته جماعة منهم ؛ كأبى القاسم على بن المحَسِّن القاضى التنوخى ، وكخازن دار العلم ، والشريفين الرضى والمرتضى ابنى أبى أحمد الموسوى ، وغيرهم . وكان المرتضى شديد الاختصاص به ، وله معه مباحثات ومداعبات .

رُوِى أنه حضر مجلسه يوما ، وجرى ذكر المتنبى فتنقصه المرتضى ، وجعل يتتبع عيوبه ؛ لبغضه له ، وتعصبه عليه . وكان أبو العلاء على عكسه يتعصب للمتنبى ، ويزعم أنه أشعر المُحْدَثِينَ ، ويفضله على بشار ومَن دونه ؛ كأبى نواس وأبى تمام . فقال : لو لم يكنَ للمتنبى إلا قوله : (لكِ يا منازل فى القلوب منازل) لكفاه فضلا . فغضب المرتضى ، وأمر به فأخرج من مجلسه ، ثم التفتَ إلى مَن بحضرته ، وقال لهم : أتدرون أى شىء أراد الأعمى بذكر هذه القصيدة ، مع أن لأبى الطيب ما هو أجود منها ؟ فقالوا : النقيب السيد أعرف ، فقال : أراد قوله فى هذه القصيدة :

وإذا أتتك مذمتى من ناقص فهى الشهادة لى بأنى كامل

قلت : ومن التلميح المستعذب بهذا البيت ، ما وقع للفتح بن خاقان مع ابن الصائغ ، وقد ذكره بسوء فى كتابه قلائد العقيان ، فمر عليه ابن الصائغ يوما وهو فى جماعة ، فضرب بيده على كتفه ، وقال : إنها شهادة يا فتح . ثم مضى فى سبيله ، فتغير لون الفتح ، وقال : والله ما بلغت بوصفى له فى كتابى عُشْرَ ما بلغ منى بهذه الكلمة !

ويشبه قصة المعرى مع المرتضى ما وقع للخالديين مع سيف الدولة ، لما عاتباه في تفضيله المتنبى ، وقالا : ليختر الأمير ما شاء من قصائده ، حتى ننظم ما هو أجود منها ، فاقترح عليهما أن يعارضا قوله :

لِعَيْنَيْكَ ما يلقى الفؤاد وما لَقِي   وللحب ما لم يَبْقَ منّى وما بَقِي

فلما كررا النظر فيها لم يجداها من غرر قصائده ، ثم فطنا إلى أن سيف الدولة أراد بهما قوله فيها :

إذا شاء أن يلهو بلحية أحمق   أراه غبارى ثم قال له الحقِ

فأحجما عن المعارضة ولم يعاوداه . وفى رواية أن هذه القصة وقعت للسَّرِىّ الرَّفَّاء لا الخالديين . وحكى بعضهم ، قال : خرجت على سبيل الفرجة ، فقعدت على الجسر ببغداد ، فأقبلت امرأة من جانب الرّصافة تريد الجانب الغرْبِىّ ، فاستقبلها شاب فقال لها : رحم الله علىّ بن الجَهْم ، فقالت فى الحال : ورحم الله أبا العلاء المعرى . ولم يقفا ، ومرّا مشرِّقاً ومُغرِّبةً ، فتتبعتُ المرأة وقلت لها : أخبريني عافاك الله عما قال لك ، وعما أجبت به ، فقالت : نعم ، رحم الله على بن الجهم ، أراد قوله :

عيونُ المها بين الرّصافة والجسر   جلبن الهوى من حيث أدرى ولا أدرى

وأردت بترحمى على أبى العلاء قوله :

فيــا دارها بالحَزْن إن مزارها   قريب ولكن دون ذلك أهوالُ

ورُوِىَ أن أحد الشرفاء سقط منه خاتم فى الحرم ، فقال له أحد بنى عمه : لِمَ لَمْ تقف على طلب هذا الخاتم الثمين ؟ فقال له : ألست من أبناء أمير المؤمنين ؟ أراد الأول قول المتنبى :

بَلِيت بِلَى الأطلال إن لم أقف بها   وقوفَ شحيحٍ ضاع فى الترب خاتَمُهُ

وأراد الثانى قوله من قصيدة أخرى :

كذا الفاطميون الندى فى أكفهم ... أعزُّ امِّحاءً من خطوط الرواجب (١)

يريد : أن الندى ملازم لأكفهم ، كما أن خطوط الرواجب ملازمة لها .

وفى البيت الأول نادرة لأبى العلاء ، وذلك أنه بلغ من ولوعه بالمتنبى أنه كان إذا ذكر الشعراء يقول : قال أبو نواس كذا ، قال البحترى ، قال أبو تمام ، فإذا أراد المتنبى قال : قال الشاعر . فقيل له يوماً : لقد أسرفت فى وصفه ، فقال : أليس هو القائل :

بليت بِلَى الأطلال إن لم أقف بها ... وقوف شحيح ضاع فى الترب خاتمه

كم يقف الشحيح على خاتمه ؟ يقف عليه أربعين يوما . فقيل له : ومن أين علمت ذلك ؟ قال : سليمان بن داود عليهما السلام وقف على طلب الخاتم أربعين يوما ، فقيل له : ومن أين علمت أنه بخيل ؟ قال : من قوله تعالى : وهَبْ لى مُلْكاً لا ينبغى لأحد من بعدى ، وما كان عليه أن يهب الله لعباده أضعاف ملكه !

ولما بلغ أبا العلاء وفاة أبى أحمد الطاهر أبى الشريفين الرضى والمرتضى سنة ٤٠٣ ، رثاه وهو بالمعرّة بقصيدة فائية طويلة ، أجاد فيها كل الإجادة ، وأنفذها إليهما ، مطلعها :

أَوْدَى فليت الحادثاتِ كفافِ ... مالُ المُسيفِ وعَنْبَرُ المُسْتَافِ

ومن غريب قوله فيها يخاطب الغرابَ :

لا خاب سَعْيُكَ من خُفَافٍ أسحمٍ ... كسُحَيْمٍ الأَسَدِىّ أو كخُفَافِ

مِنْ شاعرٍ للبين قال قصيدة ... يرثى الشريف على رَوِىّ القاف

بنيت على الإيطاء سالمة من الـ ... إقواء والإكفاء والإصراف

---

(١) الرواجب : واحدتها راجبة ، وهى مفاصل الأصابع .

الخُفَاف : الخفيف ، وسُحَيْم : عبد بنى الحَسحاس ، كان أسود ؛ وأراد بِخُفَاف : خُفَافَ بن نُدْبَةَ[1] أحد غربان العرب وشعرائها ، يعنى كأن هذا الغراب شاعر أسود كهذين الشاعرين ؛ ينعى لنا الشريف بنعيبه ، ويرثيه بقصيدة قافيّة ؛ لأنه يقول فى نعيبه : غاقِ غاقِ . وهذه القصيدة بنيت على الإيطاء ؛ لأنه يردد هذه الكلمة فى قوافيها ، إلا أنها سالمة من الإقواء ، وهو الاختلاف بين القوافى بالرفع والجر ؛ ومن الإكفاء ، وهو المخالفة بينها بالحروف ؛ ومن الإصراف ، وهو الإقواء بالنصب .

وممن صحب أبا العلاء وأخذ عنه وهو ببغداد القاضى أبو القاسم على بن المحسن التنوخى المتقدم ذكره ، وكانت بينهما رابطة اتحاد . وحمل إليه مرة جزءاً من أشعار تنوخ فى الجاهلية ، مما كان جمعه والده أبو على المحسن ، فلما تعجل أبو العلاء الرحيل عن بغداد تركه عند أبى أحمد عبد السلام ، وسأله ردّه إلى أبى القاسم ، وسار عن بغداد ، فخشى أن يكون أغفله ، فكتب يخاطب أبا القاسم بقصيدة ضمنها أغراضاً ، يقول فيها :

أهدى السلام إلى عبد السلام فما ... يزال قلبى إليـه الدهرَ ملفوتا
سألته قبل يوم السير مَبْعَثَهُ ... إليك ديوان تَيْمِ اللات ماليتا[2]
هذا لتعلم أنّى ما نهضت إلى ... قضاء حجّ فأغفلت المواقيتا

وروى ابن خلكان وابن الوردى فى تاريخيهما ، نقلا عن كتاب للحافظ أبى طاهر السِّلَفى ، وضعه فى أخبار أبى العلاء ، قال فيه مسنداً عن القاضى أبى الطيب الطبرى : كتبت إلى أبى العلاء المعرى حين وَافَى بغداد ، وقد كان نزل فى سُوَيْقَةِ غالب :

---

(١) ندبة بفتح أوله أو ضمه : أم خفاف ، وهو أحد من نسب إلى أمه من الشعراء .

(٢) أى ما نقص .

وما ذات درٍّ لا يَحِلُّ لحالب ... تناوَلُه واللحم منها مُحلَّلُ
لمن شاء فى الحالين حيًّا وميّتاً ... ومَن رام شرب الدّرّ فهو مُضلَّلُ
إذا طَعَنَتْ فى السن فاللحم طيّب ... وآكِلُهُ عند الجميع مُعَقَّـل
وخرفانها للأكل فيها كزازة (١) ... فما لحصيف الرأى فيهن مَأْكَلُ
وما يجتنى معناه إلاّ مـبرّز ... عليم بأسرار القلوب مُحَصّـلُ

فاجابنى ، وأملى على الرسول فى الحال :

جوابان عن هذا السؤال كلاهما ... صوابٌ وبعض القائلين مضلَّل
فمن ظنه كَرْماً فليس بكاذبٍ ... وَمَنْ ظنَّه نخلا فليس يُجَهَّلُ
لحومهما الأعناب والرُّطَبُ الذى ... هو الحِلُّ والدُّرُّ الرحيق المُسَلْسَلُ
ولكن ثمار النخل وهى غضيضة (٢) ... تَمَرُّ (٣) وغضُّ الكَرْم يجْنى ويُؤْكل
يكلفنى القاضى الجليل مسائلا ... هى النجم قدراً بل أعز وأطول
ولو لم أُجِبْ عنها لكنت بجهلها ... جديراً ولكن من يَوَدُّك مُقْبِل

قال القاضى أبو الطيب : فأجبته عنه ، وقلت :

أثار ضميرى من يعزّ نظيره ... من الناس طُرًّا سابغ (٤) الفضل مكمل
وَمَنْ قلبُهُ كُتْبُ العلوم بأسرها ... وخاطره فى حدة النـار مُشْعَلُ
تساوى له سرّ المعانى وجهرها ... ومُعْضِلُهَا باد لديه مُفَصَّـلُ
ولما أثار الحُبّ قاد (٥) منيعه ... أسيراً بأنواع البيان يُكَبَّلُ

(١) الكزازة : اليبس والانقباض .
(٢) رواية ابن الوردى : رطيبة .
(٣) مر يمر بالفتح والضم : ضد يحلو .
(٤) رواية ابن الوردى : سابق .
(٥) رواية ابن الوردى : ولما أثار الخَبْءَ قاد معينه .

وقرّبه من كل فهم بكشفه ... وإيضاحه حتى رآه المغفلُ
وأعجب منه نظمه الدُّرَّ مسرعا ... ومرتجلا من غير ما يَتمهَّل
فَيَخْرُجُ من بحر ويسمو مكانه ... جلالا إلى حيث الكواكب تنزل
فهنَّأه الله الكريم بفضله ... محاسنه والعُمْرُ فيها مُطوَّل

فأملى أبو العلاء على الرسول مرتجلا :

ألَا أيها القاضى الذى بدهائه ... سيوف على أهل الخلاف تُسَلَّلُ
فؤادك معمور من العلم آهِلٌ ... وجَدُّكَ فى كل المسائل مُقْبِل
فإن كنتَ بين الناس غير مُمَوَّلٍ ... فأنت من الفهم المصون مموّل
إذا أنت خاطبت الخصوم مجادلا ... فأنت وهم مثل الحمائم أجْدَل
كأنك مِن فى الشافعىّ مُخَاطِبٌ ... ومن قلبه تُمْلِى فما تتَمهّل
وكيف يُرَى علم ابن إدريس دارساً ... وأنت بإيضاح الهدى متكفل
تفضَّلت حتى ضاق ذَرْعى بشكر ما ... فعلتَ وكفّى عن جوابك أجمل
لأنك فى كنه الثريّا فصاحة ... وأَعْلَى ، ومن يبغى مكانك أسفل
فعذرِىَ فى أنى أجبتك واثقاً ... بفضلك والإنسان يسهو ويذهل
وأخطأت فى إنفاذ رقعتك التى ... هى المجد لى منها أخيرٌ وَأَوّل
ولكن عدانى أن أروم احتفاظها ... رسولك وهو الفاضل المتفضّل
ومن حقها أن يصبح المسك عاطرا ... بها[1] وهى فى أعلى المواضع تُجْعَل
فمن كان فى أشعاره متمثّلا ... فأنتَ امرؤ فى العلم والشعر أمْثَل
تجملَتِ الدنيا بأنك فوقها ... ومثلُك حقًّا مَنْ به تتَجَمَّل

والقاضى أبو الطيب المذكور كان أديبا ورعا ، عارفاً بأصول الفقه وفروعه ،

---

(١) رواه ابن الوردى : غامرا لها .

صنف فى الأصول ومذهب الشافعى والخلاف والجدل — كتباً كثيرة . وكان يقول الشعر على طريقة الفقهاء ، وولى القضاء بربع الكرخ ببغداد ، ولم يزل عليه إلى أن مات سنة خمسين وأربعمائة ، بعد ما عاش مائة سنة وسنتين ، لم يختل عقله ، ولا تغير فهمه ، يفتى ويستدرك على الفقهاء الخطأ ، ويقضى ، ويحضر المواكب فى دار الخلافة . رحمه الله تعالى .

ومن أخبار أبى العلاء قصته مع أسد الدولة صالح بن مرداس صاحب حلب ، وقبوله شفاعته فى أهل معرة النعمان بعد أن كاد يبطش بهم سنة ٤١٧ . والسبب فى ذلك أن امرأة صاحت يوم الجمعة بجامع المعرة ، وذكرت أن صاحب الماخور أراد اغتصابها ، فنفر كل من فى الجامع وهدموا الماخور ، وأخذوا خشبه ونهبوه ، وكان الأمير أسد الدولة فى نواحى صيدا ، فوصل المعرة ، وخيَّم بظاهرها ، واعتقل من أعيانها سبعين رجلا برأى وزيره تادرس بن الحسن الأستاذ ، وأوهمه أن فى ذلك إقامة للهيبة . فشق على المسلمين هذا الأمر ، حتى دعوا لهؤلاء المعتقلين على منابر آمد وَمَيَّارِقِينَ . وقطع تادرس عليهم ألف دينار ، ففزع أهل المعرة إلى أبى العلاء ، وسألوه تلافى الأمر بالخروج إلى الأمير ، والتوسط لهم عنده . فخرج من أحد أبواب المدينة ، ويده فى يد قائده ، وأبصره صالح ، فرأى شيخاً قصيراً يقوده رجل ، فقال : هذا أبو العلاء ، جيئونى به . فلما مثل بين يديه سلَّم عليه ، ثم قال : « الأمير أطال الله بقاءه كالنهار الماتع ، قاظ وسطه وطاب إبراده ، أو كالسيف القاطع ، لان متنه وخَشُن حدّاه ، « خُذِ العَفْوَ وأْمُرْ بالعُرْفِ وأعرِض عن الجاهلين » . فقال صالح : « لا تَثْرِيبَ عليكم اليومَ ، قد وهبت لكَ المَعَرَّةَ وأهلها » وأمر بتقويض الخيام ورحل . فرجع أبو العلاء وهو يقول :

نجَّى المَعَرَّةَ من بَرَاثِنِ صالح ... رب يعافى كلَّ داء معضل

ما كان لى فيها جناح بعوضة   الله ألحفهم جناح تفضـــــل

ورواية اللزوميات فى البيت الأول :

نجى المعاشر من براثن صالح   ربٌّ يُفرِّجُ كُلَّ أمرٍ مُعْضِلِ

وفيها أيضاً : ألبسهم ، بدل : ألحفهم . ولم يعلم أبو العلاء أن المال قد قطع عليهم ، و إلا كان قد سأل فيه أيضاً . وفى هذه القصة يقول وضمنها لزومياته :

تَغَيَّبْتُ فى منزل برهـــةً   سَتيرَ العيوب فقيد الحَسَدْ

فلمّا مضى العُمْرُ إلاّ الأقلّ   وحُمَّ لروحى فِرَاقُ الجَسَدْ

بُعِثْتُ شـفيعاً إلى صالح   وذاكَ من القوم رأى فَسَدْ

فيسمع مِنِّىَ سـجعَ الحمامِ   وأسمع منـه زَئِيرَ الأَسَـدْ

فلا يُعْجِبَنِّىَ هـذا النِّفَاقُ   فـكم نَفَّقَتْ مِحْنَةٌ ما كَسدْ

وصالح هذا هو أسد الدولة أبو على صالح بن مرداس الـكِلاَبِىّ أول ملوك بنى مرداس بحلب ، كان من عرب البادية ، وكانت له عشيرة وشوكة ، فقصد مدينة حلب وانتزعها من مرتضى الدولة بن لؤلؤ ، نائب الظاهر بن الحاكم الفاطمى خليفة مصر ، وتملكها سنة ٤١٧ . ثم جهز الظاهر الجيوش ووجهها إليه ، وجرت مقتلة انجلت عن قتل صالح سنة ٤٢٠ ، وقيل سنة ٤١٩ .

وهو الذى عناه أبو العلاء بقوله فى لزومياته :

أرى حَلَبًا حازها صـــالح   وجال سِنَانٌ عَلَى جِلَّقا

وحَسَّانُ فى سَلَفَىْ طيِّءٍ   يصرف من عِزِّهِ أَبْلَقَا

وذكر السيوطى فى بغية الوعاة فى ترجمة نصر بن صدقة القابسى النحوى ، أنه كان ممن يعانى الأدب ، فقدم مصر وأخذ عن علمائها ، ثم توجه إلى المعرة فلازم أبا العلاء ، وأخذ عنه ديوانه سقط الزند ، وكتب منه نسخة جيدة ، ورجع

إلى مصر، فقدمها للحاكم وقرأها عليه، فأعجبه نظمه، وأرسل إلى عزيز الدولة الوالى بحلب، أن يحمله إلى مصر، فاعتذر فكفّ عنه. هذا ما ذكره السيوطى. وفى مقدمة رسالة للمعرى تسمى بالفلّاحية: أن القابسىّ المذكور لما رجع إلى مصر بنسخته سقط الزند، أهداها للوزير أبى نصر صدقة بن يوسف الفلاحى، فأعجب بها، واستدعى كاتب الديوان، وأمره أن يكتب إلى عزيز الدولة متولى حلب وأعمالها فى حمل أبى العلاء إلى مصر، ليبنى له دار علم، وسمح بخراج معرة النعمان له فى حياته و بعده، فوصلت الأوامر إلى ديوان الشام بكتب السجل، فكُتب، وجهز على البريد. فلما وقف عليه عزيز الدولة نهض للوقت، حتى دخل معرة النعمان، وقرأ السجل على أبى العلاء، فقال: أمهلنى حتى أكتب جواب السجل إلى مجلس الوزارة، فلعل العفو يسامحنى بالمقام فى بلدى؛ إذ لا يمكننى الخروج منه. فأمهله الأمير، فأحضر الكاتب للوقت، وأملى عليه هذه الرسالة يعتذر فيها عن عدم الرحيل بعجزه عنه. والوزير الفلاحى المذكور وُزِّرَ للمستنصر سنة ٤٣٦ وعزل سنة ٤٣٩. ولم تسبق له وزارة مدة الحاكم بأمر الله، حتى يمكن الجمع بين الروايتين. وقد تقدم أن المستنصر بذل لأبى العلاء ما ببيت مال المعرة من الحلال، فلم يقبله. فلعل ذلك كان بسعى هذا الوزير، وفيه ما يرجح الرواية الثانية. إلا أن يكون مراد السيوطى مطلق حاكم بمصر، لا الحاكم بأمر الله على الخصوص. وكان هذا الوزير فى أول أمره يهوديا، ثم أسلم. وفيه يقول الحسن بن خاقان الشاعر المصرى:

حجاب و إعجاب وفرط تصلف	ومدّ يد نحو العلا بتكلف
فلو كان هذا من وراء كفاية	عذَرنا ولكن من وراء تخلف

وكان معه أبو سعد التسترى اليهودى يدبر الدولة له، فقال بعض الشعراء:

يهود هـذا الزمان قد بلغوا غاية آمالهم وقـد ملـكوا
العز فيهم والمـال عنـدهم ومنهم المسـتشار والملك
يا أهل مصر إنى نصحت لـكم تهوّدوا قـد تهوّد الفلك

وممن ارتبط مع أبى العلاء برابطة الود ، وجمعته به آصرة الأدب ؛ الوزير أبو القاسم الحسين بن على العالم الأديب المشهور بالوزير المغربى ، صاحب مختصر إصلاح المنطق ، وأدب الخواص ، والمأثور فى ملح الخدور ، وكتاب الإيناس ، والديوان الشعر . وهو الذى كتب له أبو العلاء رسالته المسماة بالمَنِيح ، ورسائل أخرى . ولما فرغ من تأليف مختصر إصلاح المنطق لابن السكيت أنفذ إلى أبى العلاء نسخة منه ، فقرظها برسالة طويلة سماها بالإغريضية ، أثنى عليه فيها ثناء جمًّا ، ووصف المختصر ، وبالغ فى مدحه . ووقفت فى رسائل لأبى العلاء مخطوطة على كتاب أرسله له هذا الوزير ، يتشوق إليه وإلى أخيه ، ويشتكى من الدهر وصروفه ، ويسأل الله أن يجمعه بهما ، وضمنه كثيراً من شعره فى هذه الأغراض . ولولا خوف الإطالة لأثبته هنا .

وكان الوزير المذكور من الدهاة العارفين ، محبا للفتن ، مثيراً للقلاقل ، قتل الحاكم بأمر الله أباه وعمه وأخويه ، فهرب إلى الرملة ، ثم انتقل إلى الحجاز ، وهو يفسد نيات الولاة على الحاكم حتى أقلقه . ودخل العراق فاتهمه القادر العباسى بالسعى فى إفساد الدولة العباسية ، فلم يزل منتقلا فى البلاد حتى مات بِمَيَّافَارِقِينَ سنة ٤١٨ على الأصح . ونقل إلى الـكوفة بوصية منه ، ودفن فى تربة مجاورة لمشهد الإمام كرم الله وجهه ؛ وأوصى أن يكتب على قبره :

كنت فى سَفْرَةِ الغَوَاية والجهـ ـل مقيما فحـان منى قدوم
تبت من كل مأثم فعسى يُمْـ ـحَى بهذا الحديث ذاك القديم

بعد خمس وأربعـــين لقَدْ ما طَلتُ إلاّ أن الغريم كريم

ورثاه أبو العلاء بأبيات أثبتها فى لزومياته ، وهى :

ليس يبقى الضَّرْبُ(١) الطويل على الأرض ولا ذو العَبَالة(٢) الدِّرْحَايَهْ

يا أبا القاسم الوزيرَ ترحّلْ تَ وخلّفتنى ثِفَالَ(٣) رَحَايَهْ

وتركت الـكتب الثمينة للنا س وما رحتَ عنهمُ بِسِحَايَهْ(٤)

ليتنى كنتُ قبل أن تشرب المو تَ أصيلا شربتُه بضُحَايَهْ

إن نَحَتْكَ المنونُ قبلى ، فإنى مُنْتَحَاهَا وإنها مُنْتَحَايَهْ

أمُّ دَفْرٍ تقول بعـــدك للذا ئق لا طعم لى فأين فَحَايَهْ(٥)

إنْ يَخُطَّ الذنب اليسير حفيظا كَ فكم من فضـيلة مَحَّايَهْ

وكان ابن القارح صاحب الرسالة المشهورة للمعرى يؤدب الوزير المغربى فى صباه ، ثم صار يذمُّه ويعدد معايبه ، حتى قال فى هجوه :

لُقِّبْتَ بالـكامل سَتْراً على نقصـك كالبانى على الخُصِّ

فصرت كالـكُنْفِ إذا شيّدت بُيِّض أعلاهن بالجِصِّ

يا عُرَّةَ الدنيا بلا غُرَّةٍ ويا طُوَيْسَ(٦) الشؤم والحرص

قتلتَ أهليك وأنهبت بيـ ت الله بالموصـل تستعصى

---

(١) الضرب : الخفيف اللحم .

(٢) ذو العبالة : الغليظ ، والدرحاية : القصير .

(٣) الثفال بالـكسر : الجلد الذى يوضع تحت الرحى .

(٤) سحاية القرطاس : ما سحى منه ، أى أخذ .

(٥) الفحا ويكسر : البزر : وفحى القدر : كثر أبازيره .

(٦) طويس : أول من غنى فى الإسلام يضرب به المثل فى الشؤم ؛ لأنه ولد ليلة مات رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وفطم يوم مات أبو بكر ، وبلغ يوم مات عمر ، وتزوج يوم قتل عثمان ، وولد له يوم قتل على .

وبلغ أبا العلاء كلامه فيه فامتعض وتألم . فلما كتب ابن القارح رسالته قال فيها فى هذا الخصوص مخاطباً أبا العلاء : « بلغنى عن مولاى الشيخ — أدام الله تأييده — أنه قال وقد ذُكِرْتُ له : أعرفه خبراً ، هو الذى هجا أبا القاسم الحسين ابن على المغربى . فذلك منه أدام الله عزه رائع لى ، خوفاً أن يستشرّ طبعى ، وأن يتصورنى بصورة من يضع الكفر موضع الشكر ، وهو بتعريف التنكير أنفع لى عنده ، لجلالة قدره ودينه ونسكه . وأنا أُطلعه طِلْعَه ، ليعرف خَفْضه ورَفعه ، وفُرادَاه وجمعه » . ثم ساق بعد ذلك نوادر عن هذا الوزير فى تهوره ومحبته للفتن ، ونقضه للعهود ، فأجابه أبو العلاء فى رسالة الغفران بأن هذا الصديق قد مات ، وأولى بمن يغفر الذنب للحى أن يغفره له وهو ميت .

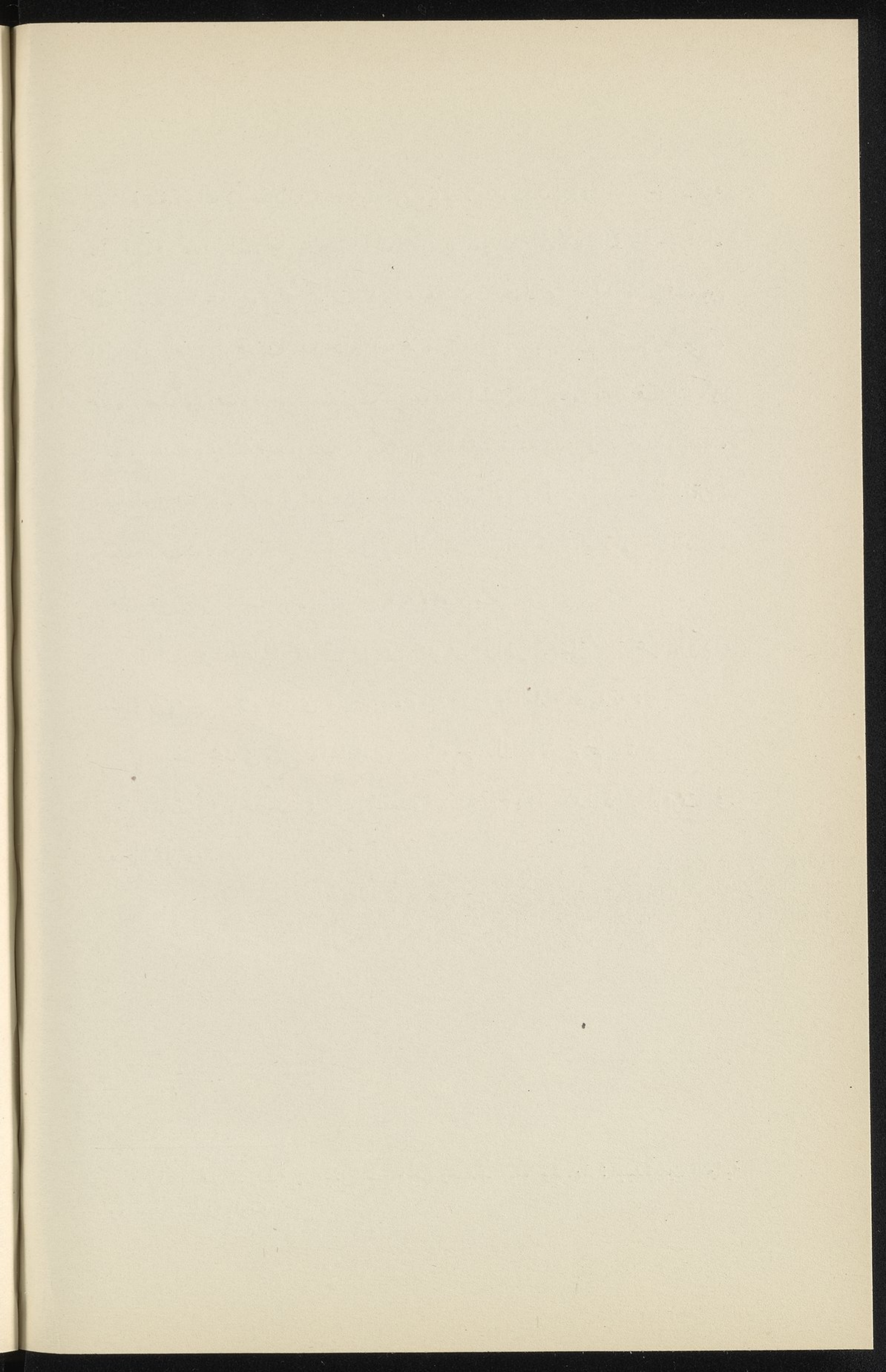
وكان أبو الخطاب محمد بن على بن محمد بن إبراهيم الجَبُّلِى[1] شاعراً ، وكان بينه وبين أبى العلاء المعرّى مشاعرة ، وفيه قال أبو العلاء قصيدته :

غير مجدٍ فى ملّتى واعتقادى　　نوحُ باكٍ ولا ترنُّمُ شادِ

ومات أبو الخطّاب فى ذى القعدة سنة ٤٣٩ . كذا ذكر ياقوت فى معجم البلدان .

---

(١) الجبلى : نسبة إلى جبل بفتح الجيم وتشديد الباء وضمها : بليدة بين النعمانية وواسط ، كما فى ياقوت .



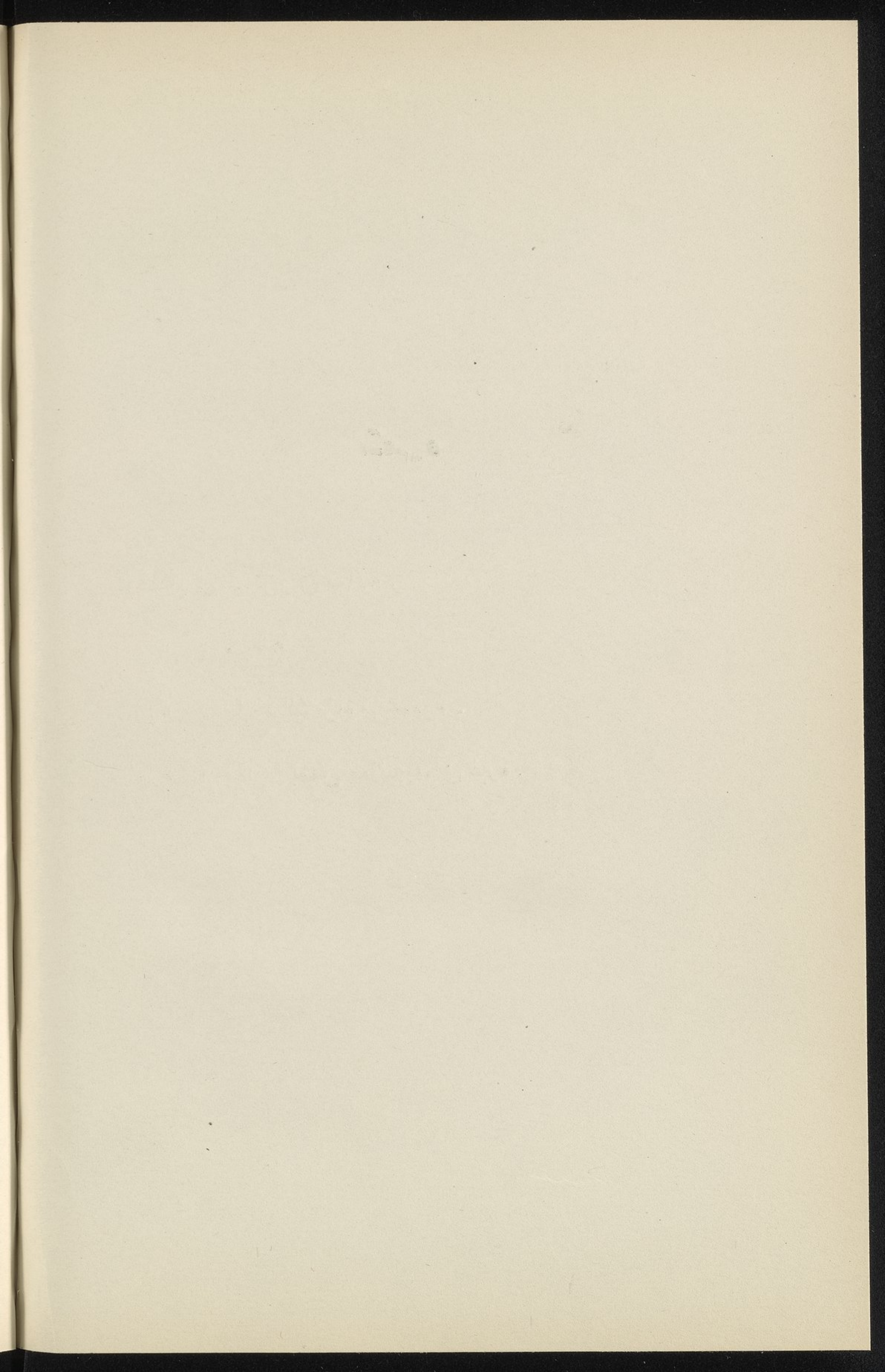
شعره

فصل فى المكرر فى معانيه .

« « سرقاته .

« « مآخذ الشعراء من شعره .

« « مقارنة بعض معانيه بمعانى غيره .



فصل فى المكرر فى معانيه

تكرير المعانى وقع لكثير من الشعراء ، ولم نر أحداً عابهم به ، إلا إذا كان المعنى فى نفسه ساقطاً مرذولا ، يؤاخذ الشاعر عليه ، فتكون مؤاخذته على تكريره وترديده أولى . ومن الشعراء من يكرر الألفاظ فيعمد إلى بيت أو شطر بيت سبق له ، فيعيده فى قصيدة أخرى ؛ إما بتغيير قافية ، أو بجعل الصدر عجزاً ، أو بالعكس . وهذا النوع يسميه أصحاب البديع بالتفصيل ، فإذا كان مأخوذاً من شعر الغير سموه : إيداعاً ، أو تضميناً ، على اختلاف بينهم فيه . ولم نقصد هنا التكلم عليه ، بل اقتصرنا على ما كرره أبو العلاء من معانيه .

فمنها قوله فى تشبيه مسامير حلق الدروع بعيون الجراد :

سليميّةٌ من كلّ قَتْرٍ يحوطها   قَتِيرٌ نبَتْ عنه الغوانى العوانس

تُخَيِّلُ أبصارَ الدَّبَى فمسهّدٌ   ومُغْفٍ وشىء بين ذينك ناعِسُ

كرره فقال :

كأن الدَّبى غرقى بها غير أعين   إذا رُدَّ فيها ناظر يستبينها

وكرره فقال :

كأثواب الأراقم مزَّقَتْها   نخاطتها بأعينها الجرادُ

وكررهُ أيضاً فقال :

بدلاص كأنها   بعض ماء الثماد

حلّة الأيم خُيّطت   بعيون الجراد

وكرره فقال :

أتأ كل درعى أنْ حسبت قتيرها ... وقد أجدبت قيس عيونَ جراد

* * *

وقوله فى تشبيه الدرع بالمبرد :

وما بُرْدَةٌ فى طيها مثل مبرد ... بعاجزة عن ضم شخص وأوصال

كرره فقال :

مُضَاعَةٌ فى نشرها نِهْىُ مُبْرِدٍ ... ولـكنها فى الطىِّ تُحسَب مِبْرَدَا

* * *

وقوله :

ذكى القلب يخضبها نجيعاً ... بما جعل الحرير لها جِلالا

كرره وبالغ فيه فقال :

غذاهنّ محمرّ النجيع قوارحًا ... كما كُنَّ يُغْذَيْنَ الضريبَ مِهَارَا

* * *

وقوله فى تشبيه فرند السيف بآثار دبيب النمل :

ودبت فوقه حمر المنايا ... ولـكن بعد ما مُسخت نمالا

كرره فقال :

كأن المنايا جيش ذرّ عرمرم ... تخذن إلى الأرواح فيه مسارا

وكرره أيضاً فقال :

ما كنت أحسب جفناً قبل مسكنه ... فى الجفن يطوى على نار ولا نهر

ولا ظننت صغار النمل يمكنها ... مشىٌ على اللُّجّ أو سَعْىٌ على السُّعُر (١)

***

وقوله فى تشبيه طحلب الماء باللثام :

وملتثم بالغَلْفَق الجَعْد عرّست ... عليه فلم تكشف خفىّ لثامه

وكرره فقال :

وكم أوردتها عِدًّا قديما ... يلوح عليه من خَزٍّ خِمارُ

***

وقوله :

فالنفس تبغى الحياة جاهدة ... وفى يمين المليك مِقْوَدُهَا

فلا اقتحام الشجاع مُهلِكها ... ولا توقى الجبان مُخْلِدُها

كرره فقال :

فكن فى كل نائبة جريئا ... تُصِبْ فى الرأى إن خَطِئَ الهِدَانُ (٢)

وسائل من تنطّس فى التوقى ... لأية علة مات الجبان

***

وقوله :

تمتع أبكار الزمان بأيْده ... وجئنا بوهن بعد ما خَرِفَ الدهر

كرره فقال :

كأنما الخير ماء كان وارِدَه ... أهلُ العصور فما أبقوا سوى العَكَرِ

وقوله :

وكل يريد العَيْش والعيش حتفه ... ويستعذب اللذات وهى سِمامُ

---

(١) السعر : جمع سعير .

(٢) الهدان : الضعيف الجبان .

كرره فقال :

تود البقاء النفسُ من خيفة الرّدى   وطول بقاء المرء سَمٌّ مُجَرَّبُ

***

وقوله :

وافقتهم فى اختلاف من زمانكم   والبدر فى الوَهْنِ مثل البدر فى السَّحَرِ

كرره فقال :

وما البدر إلا واحد غير أنه   يغيب ويأتى بالضياء المجدَّد

فلا تحسب الأقمار خلقاً كثيرة   فجملتها من نيّر متردد

***

وقوله فى رثاء أمه :

مضت وقد اكتهلتُ فخلت أَنِّى   رضيع ما بلغتُ مَدَى الفِطام

وكرره فى رثائها أيضاً فقال :

دعا الله أمًّا ليت أَنِّى أمامَها   دُعِيتُ ولو أَنَّ الهواجر آصال

مضت وكأنى مُرْضَعٌ وقد ارتقت   بى السِّنُّ حتى شكل فَوْدَىَّ أَشْكالُ

فصل فى سرقاته

هذا باب لم أقف عليه مجموعا ، فيسهل علىّ تناوله ، واستيفاء الكلام فيه ؛ وإنما أذكر منه ما اتفق لى العثور عليه فى كتب الأدب عند كتابة هذه النبذة ، أو استخرجه الخاطر الكليل أثناء مطالعة ديوانه . وأبدأ بمآخذه من أبى تمام والبحترى وأبى الطيب المتنبى ، ثم أذكر مآخذه من غيرهم من غير ترتيب .

فمن ذلك قول أبى تمام :

والحظّ يُعطاه غيرُ طالبه ويُحْرِزُ الدرَّ غيرُ مجتلبه

تلك بنات المخاض راتعة والعَوْدُ فى كوره وفى قتبِه

أخذه أبو العلاء وأخرجه فى بيت واحد فقال :

هو الحظّ عَيْرُ الوحش يستاف أنفُه خُزَامى وأنف العَوْد بالعُود يُخزم

***

وقال أبو تمام :

ثم انقضت تلك السنون وأهلها فكأنها وكأنهم أحلام

أخذه أبو العلاء وزاد عليه ، فقال :

فأَضْحَوْا حديثا كالمنام وما انقضى فسيّان منه يقظة ومنام

***

وقال أبو عبادة البحترى :

أخجلتنى بندى يديك فسوّدت ما بيننا تلك اليد البيضاء

وقطعتنى بالوصل حتى إننى متخوّف ألا يكون لقاء

أخذهما أبو العلاء وضمن معناهما فى صدر بيته ، فقال وأجاد :

لو اختصرتم من الإحسان زرتكم والعذب يهجر للإفراط فى الخَصَرِ

وهذا البيت من معجزاته ، إلا أنه أورده فى غزل القصيدة ، وكان مديحها أولى به .

***

وقال البحترى :

نشوان يطرب للسؤال كأنما ... غنّاه مالك طَيِّىء أو مَعْبَد

أخذه أبو العلاء وزاد فيه زيادة لا تخفى على الأديب ، فقال :

فما ناح قمرىّ ولاهبّ عاصف ... من الريح إلا خاله صوت سائل

فالبحترى جعل ممدوحه يطرب لصوت السائل ، طرب المنتشى من المغنّى الجيد ، وأبو العلاء جعله كلما سمع صوتا من تطريب حمام ، أو إزعاج أرواح ؛ خاله صوت سائل ، لمزيد اعتنائه بالسؤال ، وولعه بالنوال .

***

وقال أبو الطيب المتنبى فى وصف فرس :

وأصرع أىَّ الوحش قفّيتُه به ... وأنزل عنه مثلَه حين أركب

أخذه أبو العلاء فقال :

أصيل الجَدّ سابقُهُ تراه ... على الأَيْنِ المكرّر مستريحا

***

وقال أبو الطيب :

يقولون تأثير الكواكب فى الورى ... فما باله تأثيره فى الكواكب

أخذه أبو العلاء ، فقال :

من قال إنَّ النَّيِّرات عوامل ... فبِضِدِّ ذلك فى علاك يقول

يعملن فيما دونهن بزعمه ... ولهن دونك مطلع وأفول

قال شارحه أبو يعقوب النحوى : وقول أبى العلاء أرفع ؛ لأنه جعل الممدوح فوق النجوم . انتهى .

وأقول أنا : إن أبا العلاء إنما شرح المعنى ووضّحه ، فبيّن أن علة عدم تأثير الكواكب فى ممدوحه علوّه عنها ، وهذا مستفاد من قول المتنبى :

* فما باله تأثيره فى الكواكب *

لأن المؤثِّر فى العادة أعلى وأقوى من المؤثَّر فيه ، ففيه معنى بيتى المعرى وزيادة .

***

وقال أبو الطيب :

نحن بنو الموتى فما بالنا ... نعاف ما لا بُدَّ من شربه

أخذه أبو العلاء فقال :

ما رغبـــة الحىّ بأبنائه ... عمّا جنى الموت على جَدِّهِ

***

وقال أبو الطيب :

وأنا الذى اجتلب المنيّةَ طرفُه ... فمَنِ المطالبُ والقتيلُ القاتلُ

أخذه أبو العلاء فقال :

وآفة العاشق فى طرفه ... وآفة الصارم من حدّه

وكلا البيتين فيه زيادة عن الآخر لاتخفى .

***

وقال أبو الطيب :

تمر بك الأبطال كلْمَى هزيمةً ... ووجهُك وضّاح وثغرك باسمُ

أخذه أبو العلاء ، فقال :

يتهللون طلاقةً وكلومهم ... ينهلُّ منهنّ النجيعُ الأحمرُ

وبيته أبلغ فى المدح ، لأنّ غاية المتنبى أن وصف ممدوحه بتهلله عند هزيمة جيشه ، احتقاراً للأخطار . والمعرى جعل ممدوحيه يتهللون وهم مصابون يقطر منهم الدم .

* * *

وقال أبو الطيب :

يموت راعى الضأن فى جهله ... مِيتة جالينوسَ فى طبه

وربما زاد على عمره ... وزاد فى الأمن على سربه

أخذه أبو العلاء ، فقال :

رددت إلى مليك الخلق أمرى ... فلم أسأل متى يقع الكسوف

فكم سلم الجهول من المنايا ... وعُوجل بالحِمَامِ الفيلسوف

* * *

وقال أبو الطيب :

فى رتبة حَجَب الورى عن نيلها ... وعــلا فسمَّوْهُ علِيَّ الحاجبا

أخذه أبو العلاء فقال :

وقد سمّاه سيّده عليًّا ... وذلك من علو القدر فَالُ

وفى بيت المتنبى زيادة ساعد عليها لقب ممدوحه .

* * *

وقال أبو الطيب أيضاً :

أتى الزمانَ بنوه فى شبيبته ... فسرّهم وأتيناه على الهَرَم

أخذه أبو العلاء فقال :

تمتع أبكار الزمان بأَيْدِهِ(١) ... وجئنا بوهن بعد ما خرِفَ الدهر

* * *

(١) الأيد : القوة .

وقال أبو الطيب :

وقد يتقارب الوصفان جدا   وموصوفاهما متباعدان

أخذه أبو العلاء ، فقال :

قد يبعد الشىء من شىء يشابهه   إن السماء نظير الماء فى الزَّرَق

***

وقال أبو الطيب :

وإذا خفيت عن الغبىّ فعاذر   أن لا ترانى مقلة عمياء

أخذه أبو العلاء فقال :

وكم عَيْنٍ تؤمل أن ترانى   وتفقد عند رؤيتىَ السوادا

يريد : إذا رأتنى خفيتُ عليها ، فكأنها عميت ، وفقدت سوادها .

***

وقال عُمارة بن عقيل :

وما النفس إلا نُطْفَةٌ[١] فى قَرَارَةٍ   إذا لم تُكَدَّر كان صفواً غديرها

أخذه أبو العلاء فقال :

والخلّ كالماء يبدى لى ضمائره   مع الصفاء ويخفيها مع الكدر

***

وقال النابغة الذبيانى فى النعمان :

فإنك شمس والملوك كواكب   إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

أخذه أبو العلاء ، فقال فى قصر نزلته عروس ممدوحه ، فخرج من كان فيه من حاشيته :

---

(١) النطفة بالضم : الماء الصافى قل أو كثر .

كان كالأفق حين همّت به الشمـ ـس تنادت نجومه بالمسير

***

وقال عدِىّ بن الرعلاء :

ليس مَنْ مَات فاستراح بمَيْتٍ إنما المَيْتُ ميّت الأحياء

أَلَمّ به أبو العلاء فقال :

سالمُ أعدائك مُسْتَسْلِمُ والعيش موت لهم مُرْغِمُ

***

وقالت ليلى أخت الوليد بن طريف ترثيه :

أيا شجر الخابور مالك مورقاً كأنك لم تجزع على ابن طريف

أخذه أبو العلاء وتصرف فيه ، فقال :

وما كنت أدرى أن مثلك يَشْتَكى ولم يتغيّر للرياح نسـيم

***

وقال عبيد بن الأبرص يصف السحاب :

كأنّ أقرابه لما علا شطِبًا[1] أقراب أبلقَ يبغى الخيل رمّاح

أخذه أبو العلاء فقال :

سَرَتْ لها ترمح أفلاءها فى الجوّ بُلْقٌ عربيات

ذكروا أنهم يصفون السحاب بالبَلَق ، لما فيها من لَمع البروق ؛ وهو قول حسن . والأقرب عندى أنهم يصفونها بذلك ، لأن فيها ما هو رقيق ، وما هو كثيف ، وما هو متقطع ؛ فيخيل لناظرها أنها بلقاء .

***

(١) الأقراب : جمع قرب بالضم أو بضمتين ، وهو الخاصرة . وشطب : جبل معروف .

وقال الحطيئة :

يرى البُخْلَ لا يُبقى على المرء مَالَه ويعلم أن المرْء غيرُ مخلّد

أخذه أبو العلاء فقال :

إذا أُوتيت مالًا فابذلنْه فما يُبقيه توفير وخَزْنُ

* * *

وقال الأفوه الأَوْدى :

وقدور كالرُّبا راكدةٌ وجِفَانٌ كالجوابى مُتْرَعَهْ

أغار عليه أبو العلاء فقال :

وقدورهم مثل الهِضَاب رواكداً وجفانهم كرحيبة الأَفْيَافِ[١]

* * *

وقال كثيّر عزّة :

وكنت كذات الظَّلْع لما تحاملت على ظلعها بعد العثار استقلّت

أخذه أبو العلاء فقال :

أودعكم يا أهل بغداد والحشا على زفرات ما يَنِينَ من اللذع
وَدَاع ضَنٍ[٢] لم يستقلّ وإنما تحامل من بعد العثار على ظَلْعِ

* * *

وقال امرؤ القيس :

وقد أغتدى والطير فى وُكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل

أخذه أبو العلاء ، وغلا بأن جعله قيداً للريح ، فقال :

---

(١) الأفياف : جمع فيف ، وهى البرية الواسعة .

(٢) ضنى كرضى ، فهو ضنى وضن : مرض .

وخيلًا لو جرت والريح َشأْوًا ظننا الريحَ أوثقها إسَارُ

* * *

وقال أبو فراس الحمدانى :

ونحن أناس لا توسّط بيننا لنا الصدر دون العالمين أو القبر

أخذه أبو العلاء ، فقال :

وأَصْبِح واحد الرجلين إمّا مليكا فى المعاشر أو أبيِلَا

* * *

وقال بديع الزمان الهمذانى :

وكاد يحكيك صوب الغيث منسكبا لو كان طاق المحيّا يمطر الذهبا

والدهر لو لم يَخُنْ والشمس لو نطقت والليث لو لم يُصَد والبحر لو عذبا

أخذ أبو العلاء نصف شطر منه ، وقصر أىّ تقصير ، فقال :

إذا قيل بحر فهو ملح مكدّر وأنت نمير الجود عذب الشمائل

* * *

وقال أبو حيّة النميرى :

ولمّا أبتْ إلّا التواءً بودّها وتكديرها الشرب الذى كان صافيا

شربنا برنق(١) من هواها مكدّر وكيف يعاف الرنق من كان صاديا

والبيتان فى غاية الحسن ، إلا أن أبا العلاء ضمن معناهما فى بيت ، فقال :

ولما أن تجهمنى مرادى جريت مع الزمان كما أرادا

* * *

وقال أبو الشيص :

أجد الملامة فى هواكِ لذيذة طمعاً لذكرك ، فليلمنى اللوّم

---

(١) الرنق والرنق : الكدر .

أخذه أبو العلاء فقال :

لم يبق غير العذل من أسبابهم   فأحبُّ من يدنو إلىَّ عذول

***

وقال أبو الشمقمق فى حَرَّاقة[1] طاهر بن الحسين :

عجبت لحراقة ابن الحسـ   ـين كيف تعوم ولا تغرق

وبحران من تحتها واحـد   وآخر من فوقها مطبق

وأعجب من ذاك عيدانها   وقد مَسَّها كيف لا تورق

أخذ أبو العلاء البيت الثالث ، وزاد فيه بأن بيّن علّة عدم إيراق العود وأحسن التعليل ، فقال :

مِن كلّ مَنْ لولا تسعّر بأسه   لاخضرّ فى يمنى يديه الأسْمَرُ

***

وقال آخر فى الحمام ، وينسب للمنازى :

شجى قلب الخلىّ فقيل غَنَّى   وبرَّح بالشجى فقيل ناحا

قصّر أبو العلاء فى أخذه فقال :

فقلت تَغَنَّ كيف شئتِ فإنما   غِناؤكِ عندى يا حمامة إعْوَالُ

***

وقالت وَلَّادَةُ بنت المستكفى :

ترقَّبْ إذا جَنَّ الظلام زيارتى   فإنى رأيت الليل أكْتَمَ للسِرّ

وبى منك ما لو كان بالشمس لم تَلُحْ   وبالبدر لم يَطْلُعْ وبالنجم لم يَسْرِ

وقال أبو العلاء :

منك الصدود ومنّى بالصدود رضا   مَنْ ذا علىّ بهذا فى هواك قضى

---

(١) الحراقة : سفينة فيها مرامى نيران ، يرمى بها العدو .

بى منك ما لوغدا بالشمس ماطلعت   من الكآبة أو بالبرق ما ومَضَا

ولم أدر أيهما أخذ من الآخر ، لاجتماعهما فى عصر واحد . ولا يبعد أن يكون من التوارد ، إلا أن قول ولادة أبلغ !

***

أما قول أبى العلاء :

منى إليك مع الرياح تحية   مشفوعة ومع الوميض رسول

فلا يعد من السرقة فى شىء ، وإن سبقه غيره إليه ؛ لأن إرسال التحية مع النسيم أو البرق من المعانى الشائعة التى تداولتها الشعراء ، ولم تزل تتداولها . وإنما يظهر التفاضل بينهم فيها بحسن سبكها وإبرازها فى اللفظ المقبول ، والتلطف فى تصويرها . ولهذا تركت التنبيه عما وقع فى شعره منها ، كما أنى لم أتعرض لما خفى ودقّ من سرقاته ؛ لئلا يمر ناظر عليه من غير تثبت فينكره ، ويرمينى بالخطأ أو التحامل .

***

واعلم أن ما ذكرناه عن المعرى فى هذا الباب قلما يخلو منه شاعر قديم أو حديث ، ولسنا بواصلين فيه إلى حد الجزم بأنه تعمد سرقته ؛ إذ قد يَعْرِضُ المعنى للشاعر فينظمه ، ولا يمر بخاطره وقت نظمه أنه مسبوق به ، وربما كان مما لم يقف عليه فى شعر غيره . وباب التوارد واسع ، كما وقع لطَرَفَةَ بن العبد وامرئُ القيس فى قوله :

وُقُوفاً بها صَحْبِي عَلَيّ مَطِيَّهُمْ   يقولون لا تَهلِكْ أسى وَتَجَمَّلِ

فأتى به طرفة فى معلقته مغيّراً لقافيته فقط ، فقال : (وتَجَلَّدِ) بدل (وتجمل) ، وثبت عند الرواة أنه لم يطلع عليه قبل ذلك . وقال علىّ بن منصور الحلبى المعروف

ابن القارح[١] : « كان محمد بن وكيع متأدباً ظريفاً ، ويقول الشعر ، وعمل كتابا في سرقات المتنبي ، وحاف عليه كثيراً . وسألني يوما أن أخرج معه ، واسْتَصْحَبَ مُغَنِّيًا وأمره ألا يغنِّيَ إلا بشعره ، فغنَّى :

لو كان كلٌّ عليل   يزداد مثلك حُسْنَا
لكان كل صحيح   يودّ لو كان مُضْنَى
يا أكمل الناس حسنا   صِلْ أكمل الناس حُزْنا
غَنِيت عنى ومالى   وجه به عنك أَغْنَى

فقلت : أتثقل عليك المؤاخذة ؟ فقال : لا . فقلت : أبياتك مسروقة ؛ الأول من قول بعضهم :

فلو كان المريض يزيد حسنا   كما تزداد أنت على السَّقَامِ
لَمَا عِيدَ المريضُ إذاً وعُدَّتْ   شكايته من النِّعَمِ الجِسَامِ

والثانى من قول رؤبة :

مَسْلَمَ[٢] لا أنساك ما حَيِيتُ   لو أَشْرَبُ السُّلْوَانَ ما سَلِيتُ

* مالى غِنًى عنك ولو غَنِيتُ[٣] *

فقال : والله ما سمعت بهذا ، فقلت : إذا كان الأمر على هذا ، فاعذر المتنبي على مثله ، ولا تبادر إلى الحَطِّ عليه ، ولا المؤاخذة له ؛ والمعانى يستدعى بعضها بعضاً . » . انتهى .

---

(١) ابن القارح هذا هو الذى أرسل برسالته المشهورة لأبى العلاء المعرى ، فأجابه عليها برسالة الغفران .

(٢) يخاطب مسلمة بن عبد الملك .

(٣) رواية ديوان رؤبة : (ما بى غنى عنك وإن غنيت) .

ولا بد لنا قبل ختم هـذا الباب من ذكر نوع يعده كثيرون من السرقة وليس منها ، كقول الطغرائى :

وذى شَطَاط كصدر الرمح معتقل ... بمثله غير هَيَّابٍ ولا وَكِلِ

وقول الحريرى فى مقامته الرابعة والأربعين من قصيدة بائية :

وذَا شَطَاط كصدر الرمح معتقل ... صادفته بمنًى يشكو من الحَدَبِ

قال الصفدى : « ومثل هذا لا يعد سرقة ؛ لأن المعنى ليس ببديع ، ولا لفظه بفظيع[1] ، ولا الطغرائى بعاجز عن الإتيان بمثله ، بل جرى على لسانه ، ونسى أن هـذا لِغيْرِه ؛ لعدم الاحتفال بأمره إذ هو ليس بأمر كبير ، وهذا كثير الوقوع للناس ، لا يكاد يسلم الفحول منه . » . انتهى كلامه .

وقال التنوخى فى زهر الربيع : « ومما يعد سرقة وليس بها ، اشتراك اللفظ المتعارف ، كقول عنترة :

وخيلٍ قد دلفتُ لها بخيل ... عليها الأسد تهتصر اهتصارا

وقالت الخنساء :

وخيلٍ قد دلفت لها بخيل ... فدارت بين كبشيها رحاها »

انتهى .

قلت : وتحقيق المقام أن الكلام المأخوذ يشترط فيه ألا يكون ذا معنى كبير أو لفظ بالغ حدًّا ما من الرشاقة ، فإذا أدمجه الشاعر فى بيته جاء به غير مقصود لذاته ، بل يجعله كالتوطئة لمعنى آخر مقصود له ، يبنى البيت عليه . ويظهر لك ذلك فيما استشهد به الصفدى والتنوخى ، وهو كثير فى شعر العرب والمُحْدَثِينَ ، وقد وقفت منه على جملة صالحة ، لو جمعت لجاءت رسالة لطيفة ، كقول الراعى النُّمَيْرِى :

---

(١) أى عظيم .

فتى يشترى حسن الثناء بماله إذا ما اشترى المخزاة بالمجد بيهس

وهو مثل قول الأُبيرد :

فتى يشترى حسن الثناء بماله إذا السنة الشهباء[1] أعوزها القَطْرُ

وتبعهما أبو نواس فقال :

فتى يشترى حسن الثناء بماله ويعلم أن الدائرات تدور

وقول دريد بن الصِّمَّة :

أمرتهم أمرى بمنعرج اللوى فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغد

وهو مثل قول المتلمس :

أمرتهم أمرى بمنعرج اللوى ولا أمر للمَعْصِىِّ إلّا مُضَيَّعُ

وفى هذا القدر كفاية . والكلام فى السرقات الشعرية وأنواعها ، واستيعاب ما قيل فيها ، لا يتسع له مثل هذا المختصر ؛ فإذا مَنّ الله بتوفيقه ، وكان فى العمر مُهلة ، وضعنا فيها رسالة تستقل بجمع شتاتها ، وتفصيل ما أجمل منها .

ومن غريب ما وقفت عليه من ملاحظاتهم ، ما رواه علىّ بن العباس النوبختى ، قال : قال لى البحترى : أتدرى من أين أخذ الحسن[2] قوله :

ولم أدر مَنْ هم غير ما شهدت به بشرقىّ ساباط الديار البسابس

فقلت : لا ، فقال : من قول أبى خراش :

ولم أدر مَنْ ألقى عليه رداءهُ ولكنه قد سُلّ عن ماجدٍ مَحْضِ

فقلت : المعنى يختلف ، فقال : إنا نرى حذو الكلام واحداً وإن اختلف المعنى . انتهى .

---

(١) السنة الشهباء : الكثيرة الثلج الجدبة ، والشهباء أمثل من البيضاء ، والحمراء أشد من البيضاء . وسنة غبراء : لا مطر فيها .

(٢) الحسن هو أبو نواس .

قلت : إذا كان مراد البحترى مجرد البيان ، فقد لاحظ ملاحظة دقيقة ، وإذا كان قصده الحط من أبى نواس والنعى عليه ، فقد لعمرى ركب متن عشواء ، وتخبط فى ظلماء ؛ فإن احتذاء كلام العرب مطلوب فى البلاغة ، وما حث العلماء على إكثار النظر فى أشعارها واستظهارها إلا توصلا إلى ذلك . ولولا محاولته ما صبرنا على الغدائر المستشزرات ، والقنو المتعثكل ؛ بل لو لم يصقل البحترى شعره بتلك المَسْحَة العربية ، ما كانت له الديباجة الغريبة التى انفرد بها بين معاصريه ، وبَذّ بها أهل طبقته . والله أعلم .

فصل فى مآخذ الشعراء من شعره

القول فى هذا الباب كالقول فى سابقه ؛ فلهذا نقتصر على ذكر ما حضر منه ، دون استيعاب سائره . فمنه قول أبى العلاء :

لا تطلبن بآلة لك رفعة   قلم البليغ بغير حظ مِغْزَلُ
سكن السماكان السماء كلاهما   هذا له رمح وهذا أعزل

أخذه أبو إسحق الغزى ، فقال :

والحسن والقبح قد تحويهما صفة   شان البياض وزان الشيب والشنبا
ظُبَا المُخَارَفِ[1] أقلام مكسّرة   رءوسهن وأقلام السعيد ظُبَا

* * *

وقال أبو العلاء يصف خيلا :

ولما لم يسابقهن شىء   من الحيوان سابقن الظلالا

أخذه ابن حمديس فقال وأجاد :

ويكاد يخرج سرعة من ظله   لو كان يرغب فى فراق رفيق

* * *

وقال أبو العلاء :

إذا اشتاقت الخيل المناهل أعرضت   عن المـــاء فاشتاقت إليها المناهل

أخذه الطغرائى فقال :

ونفس بأعقاب الأمور بصيرة   لها من طِلاع الغيب حاد وقائد
وتأنف أن يشفى الزلال غليلها   إذا هى لم تشتق إليها الموارد

* * *

---

(١) يقال رجل مخارف بالمعجمة ومحارف بالمهملة وبفتح الراء فيهما ، أى محدود ممنوع .

وقال أبو العلاء :

وما ازدهيت وأثواب الصبا جُدُدٌ ... فكيف أُزْهى بثوب من صباً خَلَقِ

أخذه الطغرائى أيضاً فقال :

لم أرتض العيش والأيام مقبلة ... فكيف أرضى وقد ولّت على عجَلِ

***

وقال أبو العلاء :

وافقتَهم فى اختلاف من زمانكم ... والبدر فى الوَهْنِ مثلُ البدر فى السحر

أخذه الطغرائى فقال :

مجدى أخيراً ومجدى أولا شَرَعٌ ... والشمس رأد الضحى كالشمس فى الطَّفَل

قال الصفدى : ولكن قول المعرّى ألطف عبارة ، وأحسن شارة و إشارة ؛ لأن الطغرائى أغرب فى لفظتى رأد والطفل ، وعذوبة الألفاظ أمر مهم فى البلاغة . انتهى . وقد ناقشه بدر الدين الدمامينى فى « نزول الغيث » بما لا يخلو إيراده من فائدة ، ونص عبارته : « أقول : الإغراب فى اللفظ ، هو الإتيان به غريباً ، وقد نص بعض الأئمة على أن الغرابة كون الكلمة وحشية غير ظاهرة المعنى ، ولا مأنوسة الاستعمال ؛ فمنه ما يحتاج فى معرفته إلى أن ينقر و يبحث عنه فى كتب اللغة المبسوطة ، ثم الغريب منه حسن ، وهو الذى لا يعاب استعماله عند العرب ؛ لأنه لم يكن وحشيا عندهم ، مثل اشمَخَرَّ واقمطرّ ، ومنه قبيح يعاب استعماله مطلقاً ، و يسمى الوحشى الغليظ ؛ وهو أن يكون ، مع كونه غريب الاستعمال ، ثقيلا على السمع ، كريها فى الذوق ، و يسمى المتوعر أيضاً ، مثل اطلخم الأمر . وعلى كل تقدير فلا نسلم أن رأد والطفل من الغرابة فى شىء ، كما ادعاه الصفدى . وفى قوله : وعذوبة الألفاظ أمر مهم فى البلاغة ، قرينة دالة على أنه أراد أن الرأد والطفل من الغريب المستكره فى الذوق ، المسمى بالمتوعر ؛ وظاهر أن ذلك خطأ نشأ من سوء الذوق ،

وعدم المعرفة بكلام القوم ، والإعراض عن التدبر لاصطلاحهم » . انتهى كلامه .

* * *

وقال أبو العلاء :

وأغدو ولو أن الصباح صوارم   وأسرى ولو أن الظلام جحافل

أخذه عفيف الدين التلمساني فقال :

أسير ولو أن الصباح مواكب   وأسرى ولو أن الظلام قتام

* * *

وقال أبو العلاء فى سيف :

ودبّت فوقه حُمر المنـــايا   ولـكن بعد ما مُسخت نمالا

أخذه الوزير أبو محمد عبد الغفور فقال :

تريه المنايا الحمر فيه وجوهنا   مماثلة الأرواح فى خِلقة الذرّ

* * *

وقال أبو العلاء :

والنجم تستصغر الأبصار رؤيته   والذنب للطرف لا للنجم فى الصغر

أخذه التهامى فقال :

لم أَخْفَ إلا للعلوّ وإنما   تُخطِى السُّهَا لعلوه الأبصارُ

* * *

وقال أبو العلاء :

وفضل الشمس فى الأيام باق   وإن مدّت من الـكبر اللُّعَابَا

أخذه ابن سناء الملك ، فقال من قصيدة يهجو بها الشمس :

أنت عجوز لِمْ تبرجتِ لى   وقد بدا منك لعـاب يسيل

* * *

وقال أبو العلاء :

خفف الوطء ما أظن أديم الأ   رض إلا من هـذه الأجساد

أخذه مهيار الديلمى فقال :

رويدا بأخفاف المطى فإنما تداس جباه فى الثرى وخدود

***

وقال أبو العلاء فأجاد :

الموقدون بنجد نار بادية لا يَحْضُرُونَ وفقد العزّ فى الحَضَر

إذا هَمَى القَطْرُ شبتها عبيدهم تحت الغمائم للسارين بالقُطُر

أى إذا أطفأ المطر نارهم شبتها عبيدهم بالقُطْرِ ، وهو العود ليهتدى السارى برائحته . قال الصفدى : وعليه اعتمد ابن عباد فى قوله ، على أنه ما فارق المغنى ، ولا خالف المعنى ؛ وهو :

المكثرين من الكِباءِ(١) بنارهم لا يوقدون بغـيره للسارى

***

وقال أبو العلاء :

سألن فقلت مقصدنا سعيد فكان اسم الأمير لهن فالا

أخذه عصريّنا سليم رحمى بك رحمه الله ، فقال فى محمد شريف باشا وزير مصر :

يقول القوم مطلبكم عزيز فقلت نعم ومقصدنا شريف

***

وقال أبو العلاء :

تحية كسرى فى السناء وتُبَّع لربعك لا أرضى تحيـة أرْبُع

أخذه أحمد شوقى بك ، فقال فى مدح السلطان عبد الحميد :

سلام الله لا أرضى سلامى فكل تحيـــة دون المقام

---

(١) الكباء ككساء : عود البخور ، أو ضرب منه .

فصل فى مقارنة بعض معانيه بمعانى غيره

قال أبو العلاء :

جهلٌ بمثلك أن يزور بلادنا يختال بين أساور وخلاخل

أو ما رأيت الليل يلقى شهبه حتى يجاوزها بحلة عاطل

وقال الوزير ابن زيدون :

قعيدك أنّى زرت نورك واضح وعطرك نمّام وحَليك مرجف

هبيك اعتررت[1] الحى واشيك هاجع وفرعك غربيب وليلك أغضف[2]

فكيف اعتسفت الهول خطوك مدمج وردفك رجراج وخصرك مُخْطَفُ[3]

أقول : مدار المعنى فى الشعرين على التعجب من مخاطرة هذه المعشوقة فى زيارة صاحبها . فتناوله كلا الشاعرين ، وتلاعب به ، فأبرزه فى الصورة التى شاء له اقتداره إبرازه فيها ؛ وقد أجاد كل منهما فيما حاوله ، وتساويا فى الإحسان ، فلا أرى للترجيح مدخلا بينهما . ويلوح لى أن كليهما اعتمد فى توليد معناه على قول أبى الطيب :

قلق المليحة وهى مسك هتكها ومسيرها بالليل وهى ذُكاء

ولا يظهر ما قلته إلا بزيادة التدقيق ، و إطالة التأمل .

***

وقال أبو العلاء :

آلَى أميرك لا يسرى الخيال لنا إذا هجعنا فقد أسرى وما عَلِمَا

وكم تَمَنَّتْ رجال فيك مُغْضَبَةً أن يبصروه فلم يظهر لهم سَقَمَا

---

(١) المعتر : الزائر .

(٢) الأغضف : المظلم .

(٣) المخطف : المنطوى .

وقال مانى الموسوس وقد سأله محمد بن طاهر إجازة قول الشاعر :

حجبوها عن الرياح لأنى قلت ياريح بلِّغيها السلاما

لو رضوا بالحجاب كان ولكن منعوها يوم الرّياح الكلاما

فقال :

فتنفست ثم قلت لطيفى وَيْك لو زرت طيفها إلماما

حَيِّها بالسلام سرًّا وإلا منعوها لشقوتى أن تناما

أقول : خلاصة المعنى المبالغة فى الحجر عليها . فادعى أبو العلاء أن ولىَّ أمرها بالغ فى حجبها ، حتى حلف على خيالها ألا يزور حبيبها ، ولكن الخيال غافله وزاره ، ولضناه فى حبه نحل ، نخفى على مَنْ يترصد رؤيته . وقصَّر مانى فلم تصل يده إلى الخيال . وبيتاه على ما فيهما من حسن التخييل وعذوبة الألفاظ ينحطان عن بيتى أبى العلاء .

* * *

وقال أبو العلاء :

ذكرت بها قِطْعاً من الليل وافياً مضى كمضىّ السهم أَقْصَرَ من قِطْعِ

وقال آخر :

ظَلِلنا عند دار أبى نعيم بيوم مثل سالفة الذباب

وقال آخر :

ويوم كإبهام القطاة مزيَّن إلىّ صباه غالب لِىَ باطله

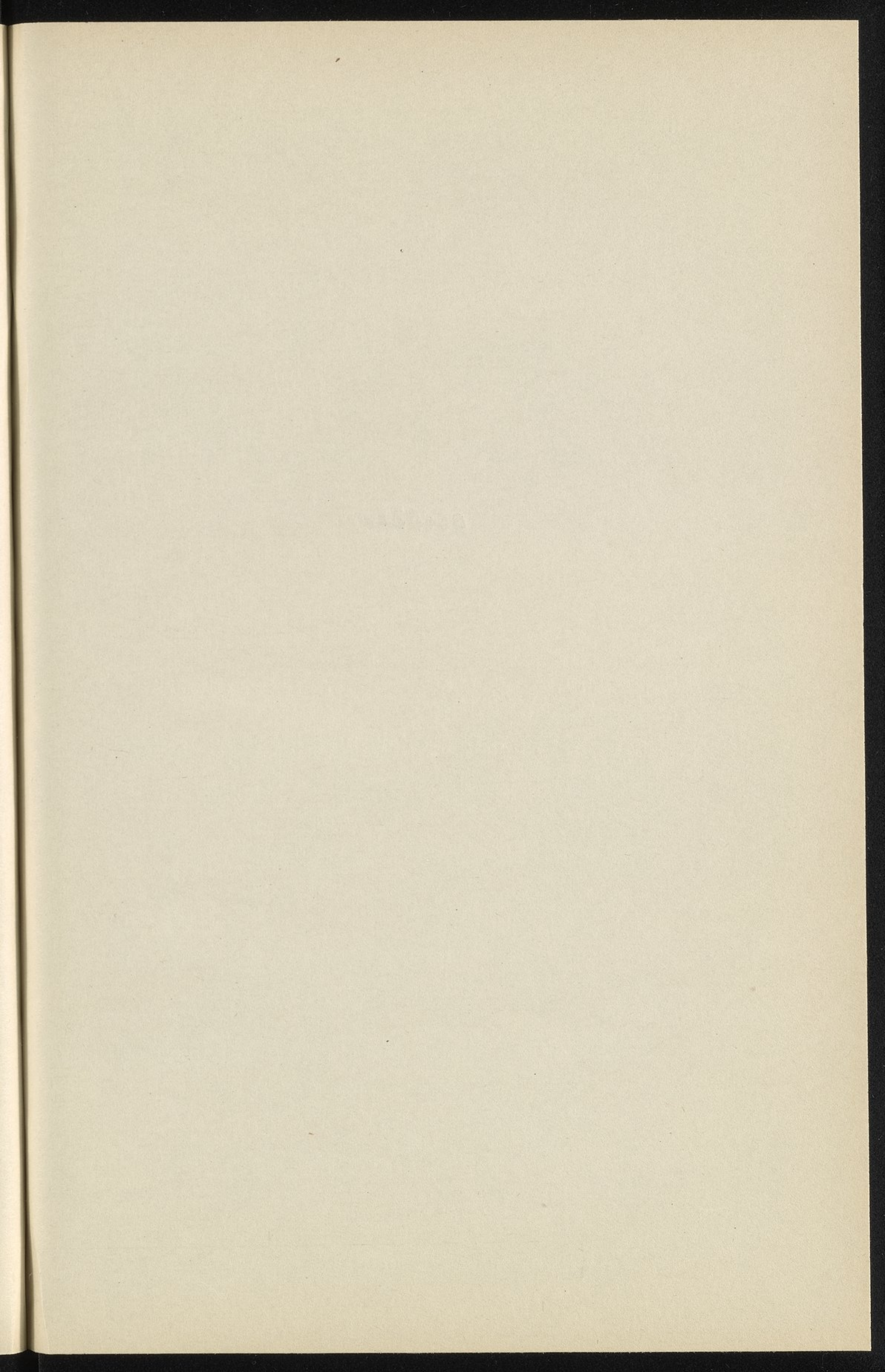
فأبو العلاء شبه الليل فى قصره بالقِطْع ، وهو النصل الصغير . والثانى شبه يومه فى قصره بعنق الذباب . والثالث شبهه بإبهام القطاة . قال أبو يعقوب النحوى : وهذا أشد مبالغة من قول أبى العلاء ، إلا أنه أغرب فى الصنعة ، من حيث إنه ذكر قطع الليل وقطع السهم ، جاعلا مضى الليل كمضى السهم . اهـ .

معتقده

فصل فى اختلافهم فيه .

« « معتقده فى الله .

« « معتقده فى النبوات والرسل .



فصل فى اختلافهم فيه

لم يختلف الناس فى رجل اختلافهم فى أبى العلاء ، ولا تراوحوا بشخص بين الكفر والإيمان تراوحهم به . فلا غرو إذا قضى مثل هذا التناقض على الباحث فى أمره ألا يتلقى كل ما قيل عنه بالقبول ، وأن يجنح إلى مقارنة ما نطق به بما نقل عنه ؛ توصلا إلى حكم باتٍّ فيه ؛ إن خيراً فخير ، وإن شرًّا فشر .

وقد تأملت المختلفين فيه ، فوجدتهم على ثلاثة أقسام :

فريق متزندقون ، يُكفِّرُونَه ويحبونه لكفره ، ومنهم متفرنجة هذا العصر ؛ أو مؤمنون يبغضونه لذلك .

وفريق يذهبون إلى صحة إيمانه ، وربما تغالوا فألحقوه بالأولياء الواصلين ، وروَوْا له الكرامات .

وآخرون متحيرون أمسكوا عنه ، ووكلوا أمره لخالقه .

وأنا بادئ بذكر أقوالهم فيه ، ثم معقبها بما ثبت من أقواله ؛ مقسمة إلى فصول ، كما فعلت بأخباره . فأقول :

ذكر غير واحد أنه كان متهماً فى دينه ، وأنه اجتاز باللاذقية ونزل ديراً كان به راهب له علم بأقاويل الفلاسفة ، فسمع كلامه ، فحصل له بذلك شكوك . واستدلوا أيضاً على إلحاده بتجافيه عن أكل الحيوان خمساً وأربعين سنة ، قالوا : وهذا من اعتقاد الحكماء المتقدمين ؛ لأنهم يرون فى ذبح الحيوان تعذيباً له . وسيأتى الكلام على ذلك فى فصل مستقل . ونقلوا عن تلميذه أبى زكريا التبريزى أنه قال : قال لى المعرى مرة : ما الذى تعتقد ؟ فقلت فى نفسى : اليوم أقف على اعتقاده . فقلت له : ما أنا إلا شاكٌّ . فقال : وهكذا شيخك . وقال فى حقه

الباخرزى فى دُمْيَة القصر : « ضرير ماله فى أنواع الأدب ضريب ، ومكفوف فى قميص الفضل ملفوف ، ومحجوب خصمه الألد محجوج . وقد طال فى ظلال الإسلام أناؤه ، ولكن ربما يترشح بالإلحاد إناؤه ؛ وعندنا خبر بصره ، والله أعلم ببصيرته ، والمطلع على سريرته ؛ وإنما تحدثت الألسن بإساءته ، ككتابه الذى زعموا أنه عارض به القرآن ، وعنونه بالفصول والغايات ، ومحاذاة السور والآيات ، وأظهر من نفسه تلك الخيانة ، وجذّ تلك الهوسات كما يُجَذ العَيْرُ الصليانة ، حتى قال فيه القاضى أبو جعفر قصيدة أولها :

كلب عوى بمعرّة النعمان   لما خلا عن ربقة الإيمان

أمعرة النعمان ما أنجبت إذ   أخرجت منك معرّة العميان »

انتهى .

وممن حكم بزندقته شمس الدين الذهبى ، وأطال فى ترجمته ، وذكر له فيها قبائح . قال الصفدى : وأظن الحافظ السِّلَفِىَّ قال إنه تاب وأناب . وتحامل عليه أبو الفداء فى تاريخه ، وغضّ منه كثيراً ؛ حتى اضطر ابن الوردى للرد عليه . وفى الكوكب الثاقب أن القاضى المنازى دخل عليه فذكر مايسمعه من الطعن فيه ، ثم قال : مالى وللناس ، وقد تركت لهم دنياهم ، فقال المنازى : وأخراهم أيضاً ، فقال : ياقاضى ! وأخراهم أيضاً . وجعل يكررها . وفى هذه الرواية تحامل من المؤلف ؛ فقد رواها ابن خلكان فى ترجمة المنازى على أنه قال له : والآخرة أيضاً ، وجعل يكررها ، ويتألم لذلك ، وأطرق ، فلم يكلمه إلى أن قام .

ونقل ياقوت عن رسالة الغفران أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما أجلى أهل الذمة عن جزيرة العرب شق ذلك على الجالين ، فيقال : إن رجلا من يهود خيبر ، يعرف بسمير بن أدكن ، قال فى ذلك :

يصول أبو حفص علينا بِدِرَّةٍ رُوَيْدَكَ ؛ إنّ المرْءَ يطفو ويرسب

كأنك لم تتبع حَمُولة مأقط لتشبع ؛ إن الزاد شيء محبب

فلو كان موسى صادقاً ما ظهرتمُ علينا ؛ ولكن دولةٌ ثم تذهب

ونحن سبقناكم إلى المين فاعرفوا لنا رتبة البادى الذى هو أكذب

مشيتم على آثارنا فى طريقنا وبغيتكم فى أن تسودوا وترْهَبُوا

ثم قال ياقوت : وهذا يشبه أن يكون شعره ، قد نحله هذا اليهودى ؛ أو أن إيراده لمثل هذا ، واستلذاذه به ، من أمارات سوء عقيدته ، وقبح مذهبه . انتهى .

والعجب من ياقوت ، كيف يزعم هذا الزعم ، ومن أين أتى له أن هذه الأبيات من شعره ، أو أنه أوردها استلذاذاً بها ، وهو إنما جاء بها فى أثناء كلامه على الزنادقة وتقبيح أعمالهم . وأحْرِ أن يكون إيراده لها فى عرض إنكاره عليهم ، من أبين الأدلة على حسن عقيدته . وليست رسالة الغفران ببعيدة على من يريد تحقيق ذلك .

وسئل فتح الدين بن سيد الناس : ما كان رأى الشيخ تقى الدين بن دقيق العيد فيه ، فقال : كان يقول : هو فى حيرة . فقال الصفدى : وهذا أحسن ما يقال فى أمره ؛ لأن فى كلامه تناقضاً كثيراً . وإلى الله ترجع الأمور .

هذا ما وقفت عليه من كلامهم فى سوء عقيدته ، إلا قليلا منه سيرد عليك فيما يأتى من الفصول .

ونقلوا عن رسالة ابن العديم أنه قال : إنى اعتبرت من ذم أبى العلاء ومن مدحه ، فوجدت كل من ذمه لم يره ولا صحبه ، ووجدت كل من لقيه هو المادح له .

وقال ابن الوردى بعد ما أورد مراسلاته مع القاضى أبى الطيب الطبرى التى

مرّ ذكرها فى أخباره : « وشهادة أبى الطيب فى الشيخ مقدمة على شهادة الغير ، وحسن الظن خصوصاً بالعلماء قد دل عليه القرآن والحديث ، وهو لا يأتى إلا بخير . وكان شيخنا عبس حسن العقيدة فيـه ؛ واعتراف الطبرى له ومدحه يكفيه .

شهادة الطبرىّ الحَبْرِ كافيـةٌ   أبا العـلاء فقل ما شئت أو فذر

من أغمد السيف عنه كان فى دعة   ومَنْ نضى السيفَ قابلناه بالطَّبرِ »

انتهى كلامه . وقوله : قابلناه بالطبر فيه تورية ، والطَـبَرُ هو الطبرزين معرب ، ومعناه : فأس السرج ؛ لأن فرسان العجم كانت تحمله معها تقاتل به ، ويقال له عندهم التَّبَر . كذا ذكر المُحِبّى فى « قصد السبيل ؛ فيما فى اللغة العربية من الدخيل » .

ونقلوا أيضاً عن رسالة ابن العديم المذكورة أنه قال : قرأت بخط أبى اليسر شاكر المعرى فى ذكره ، وكان رضى الله عنه يرمى من أهل الحسد له بالتعطيل ، ويعمل تلاميذه وغيرهم على لسانه الأشعار ، يضمنونها أقاويل الملحدة ؛ قصداً لإهلاكه ، وإيثاراً لإتلاف نفسه ، فقال رضى الله عنه :

حاول إهوانىَ قوم فما   واجهتهم إلا بإهوان

وحرشونى بسـعاياتهم   فغيّروا نيـة إخوانى

لو استطاعوا لوشوا بى إلى الـ   ـمريخ فى الشهب وكيوان

وقال أيضاً :

غريت بذمّى أمّـةٌ   وبحمد خالقها غريت

وعبدت ربّى ما استطعـ   ـت ومن بريّته بريت

وفرتنىَ الجهّال حا   سدة علىّ وما فريت

سعروا عليّ فلم أحسّ وعندهم أنى هريت

قال الصفدى : « أما الموضوع على لسانه ، فلعله لا يخفى على مَنْ له لُبٌّ .
وأما الأشياء التى دوّنها ، وقال بها فى لزوم مالا يلزم ، وفى استغفر واستغفرى ،
مما فيه حيلة . وهو كثير ، فيه ما فيه من القول بالتعطيل والاستخفاف بالنبوات .
ويحتمل أنه ارعوى وتاب بعد ذلك كلّه . وحُكِيَ لى عن الشيخ كمال الدين
ابن الزملكانى أنه قال فى حقّه : هو جوهرة جاءت إلى الوجود وذهبت » .
انتهى كلام الصفدى . قلت : أما استغفر واستغفرى فلم أقف عليه ؛ فإن كان
ما فيه يشبه ما فى لزوم ما لا يلزم ، فسيرد عليك ما يزيل الشك فيه .

وقال ابن الوردى فى تاريخه : « وأنا كنت أتعصب له لكونه من المعرة ،
ثم وقفت له على كتاب استغفر واستغفرى فأبغضته ، وازددت عنه نفرة ،
ونظرت له فى كتاب لزوم مالا يلزم ، فرأيت التَّبَرى منه أحزم ؛ فإن هذين
الكتابين يدلاّن على أنه كان لما نظمهما عالماً حائراً ، ومذبذباً نافراً ، يقرّ فيهما
أن الحق قد خفى عليه ، ويودّ لو ظفر باليقين فأخذه بكلتا يديه ؛ كما قال فى
مرثية أبيه :

طلبت يقيناً من جهينة عنهم ولم تخبرينى ياجهين سوى الظنّ

فإن تعهدينى لا أزال مسائلا فإنى لم أعط الصحيح فأستغنى

ثم وقفت له على كتاب « ضوء السقط » الذى أملاه على الشيخ أبى عبد الله
محمد بن محمد بن عبد الله الأصبهانى ، الذى لازم الشيخ إلى أن مات ، ثم أقام
بحلب ، يروى عنه كتبه ، فكان هذا الكتاب عندى مصلحاً لفساده ، موضحاً
لرجوعه إلى الحق وصحة اعتقاده ؛ فإنه كتاب يحكم بصحة إسلامه مؤلا ، ويتلو لمن
وقف عليه بعد كتبه المتقدمة (وللآخرة خير لك من الأولى) ؛ فلقد ضمن هذا

الكتاب ما يثلج الصدر، ويلذ السمع، ويقر العين، ويسر القلب، ويطلق اليد، ويثبت القدم؛ من تعظيم رسول الله صلى الله عليه وسلم خير بريته، والتقرب إلى الله بمدائح الأشراف من ذريته، وتبجيل الصحابة، والرضا عنهم، والأدب عند ذكر ما يتلق منهم، وإيراد محاسن من التفسير، والإقرار بالبعث والإشفاق من اليوم العسير، وتضليل من أنكر المعاد، والترغيب فى أذكار الله والأوراد، والخضوع للشريعة المحمدية وتعظيمها. وهو خاتمة كتبه، والأعمال بخواتيمها. وقد يعذر من ذمّه، واستحل شتمه، فانه عوّل على مبادى أمره، وأوسط شعره؛ ويعذر مَنْ أحبه، وحرّم سبّه، فانه اطلع على صلاح سرّه، وما صار إليه فى آخر عمره؛ من الإنابة التى كان أهلها، والتوبة التى تَجُبُّ ماقبلها. وكان يقول رحمه الله: أنا شيخ مكذوب عليه.» . انتهى كلامه بنصه.

قلت: وليس فى لزوم ما لا يلزم ما يصل بالإنسان إلى حد التبرى منه، كما ذكر الشيخ، والبيتان اللذان رواهما من مرثية أبيه لا يدلان على ماذهب إليه، وإنما مراده أن علم الغيب محجوب عنه، فلا يدرى عن أبيه: أهو فى شقاء أم نعيم، وهما مثل قوله من هذه القصيدة:

جَهِلْنا فلم نَعلَمْ على الحرص ما الذى ... يُرَادُ بنا والعـلم لله ذى المَنّ

قال شارحه أبو يعقوب النحوى: «وهذا على معنى أن أمر السعادة والشقاوة مطوى عن العباد، وأن الأمور كلها بمشيئة الله تعالى، وهى مستورة؛ ولهذا كره السلف أن يقول القائل: أنا مؤمن حقا، بل أنا مؤمن إن شاء الله تعالى؛ لا على معنى الشك فى الإيمان والاعتقاد، بل على معنى الخوف من سوء العاقبة، وخفاء علم الله تعالى فى ذلك، وانطواء أمر الخاتمة» . انتهى.

وذكر ابن الوردى فى تاريخه أيضاً: أن حسّاده أغروا به وزير حلب، فجهز

لإحضاره خمسين فارساً ليقتله ، فأنزلهم أبو العلاء فى مجلس له بالمعرة ، فاجتمع بنو عمه إليه ، وتألموا لذلك ، فقال : إن لى ربا يمنعنى ، ثم قال كلاما منه مالا يفهم ، وقال : الضيوف ، الضيوف ! الوزير ، الوزير ! فوقع المجلس على الخمسين فارساً فماتوا ، ووقع الحمام على الوزير بحلب فمات ؛ فمن الناس من زعم أنه قتلهم بدعائه وتهجده ، ومنهم من زعم أنه قتلهم بسحره ورصده . وهذه القصة رواها صاحب الكوكب الثاقب بزيادة تفصيل ، فذكر عن الغزالى أنه قال حدثنى يوسف بن على بأرض الهركار ، قال : دخلت معرة النعمان ، وقد وشى وزير محمود بن صالح صاحب حلب إليه بأن المعرى زنديق لا يرى إفساد الصور ، ويزعم أن الرسالة تحصل بصفاء العقل ، فأمر محمود بحمله إليه من المعرّة ، و بعث خمسين فارساً ليحملوه ، فأنزلهم أبو العلاء دار الضيافة ، فدخل عليه عمه مسلم بن سليمان ، وقال : يا ابن أخى قد نزلت بنا هذه الحادثة ، والملك محمود يطلبك ، فإن منعناك عجزنا ، و إن أسلمناك كان عاراً علينا عند ذوى الذمام ، ويَرْكَبُ تَنُوخَ الذلُّ والعار ، فقال : هوّن عليك يا عمّ ، ولا بأس عليك ؛ فلى سلطان يذب عنى . ثم قام فاغتسل وصلى إلى نصف الليل ، ثم قال لغلامه : انظر إلى المريخ أين هو ؟ فقال : فى منزلة كذا وكذا . فقال : زنه واضرب تحته وتدا ، وشد فى رجلى خيطا ، واربطه إلى الوتد . ففعل غلامه ذلك ، فسمعناه وهو يقول : يا قديم الأزل ، يا علة العلل ، يا صانع المخلوقات ، وموجد الموجودات ؛ أنا فى عزك الذى لا يرام ، وكنفك الذى لا يضام ، الضيوف الضيوف ، الوزير الوزير ! ثم ذكر كلمات لا تفهم ، و إذا بهدة عظيمة ، فسأل عنها ، فقيل : وقعت الدار على الضيوف الذين كانوا بها ، فقتلت الخمسين . وعند طلوع الشمس وقعت بطاقة من حلب على جناح طائر : لا تزعجوا الشيخ ، فقد وقع الحمام على الوزير . قال يوسف بن على : فلما شاهدت

ذلك ، دخلت على المعرّىّ فقال : من أين أنت ؟ فقلت : من أرض الهركار ، فقال : زعموا أننى زنديق ، ثم قال : اكتب . وأملى علىّ أبياتا من قصيدة أولها :

أستغفر الله فى أمنى وأوجالى   من غفلتى وتوالى سوء أعمالى

ثم ساق صاحب الكوكب الثاقب سبعة أبيات من هذه القصيدة . وسأوردها بتمامها عند الكلام على منظومه ؛ فإنها من شعره المفقود . وهذه القصة رواها غير واحد ، فلم يذكروا رصده للمريخ كما هنا ، وهو الأشبه بمذهب أبى العلاء ؛ فإن من يقف على كلامه فى المنجمين وتقبيح أعمالهم ، يحكم بأن هذا من الموضوع عليه . والله أعلم .

والخلاصة أن الذى ظهر لى من مطالعة مؤلفاته ، أنه لم يكن ملحدا كما يزعمون ، بل كان مؤمناً بالله وكتبه ورسله ، وإنما كانت تقع له بعض الأحيان أحوال يضيق بها صدره ، فينفث نفثات يوهم ظاهرها ، وكان الأولى به تركها . وهى مهما بلغت من الشناعة والبشاعة لا تصل إلى الكفر والإلحاد ، بل فيها ما إذا قارنته بما قاله فى ضده لظهر لك جليا أنه لم يرد ما سبق إلى ذهنك فيه من أول وَهْلةٍ ؛ كإنحائه تارة على الديانات ، ومدحه لها تارة أخرى ؛ فإنك لو قابلت بين القولين بإمعان ، لأقنعت بأنه لم يرد بالذم الديانات نفسها ، بل أراد منتحليها المتاجرين بها ، وكثير ماهم فى كل زمن .

وإنما أُتِىَ الرجل من جهة حسدته وشانئيه ، وولوع جماعة منهم بتقويله مالم يقل ، وإشهاره بما كانوا ينظمونه على لسانه من أقوال المعطلة والزنادقة ؛ حتى صارت الأذهان لكثرة ما وقر فيها من ذلك ، إذا ألقى إليها شىء من شعره فيه إيهام ، انصرفت إلى إساءة الظن به . وسيرد عليك من أقواله ما وافق أقوال مشهورى المتصوفة ، وكبار الزهاد ، حذوَ القُذّة بالقُذّة . إلا أنها

كتبت لهم ، وكتبت عليه ، ولله فى خلقه شؤون . ولهـذا اقتصرت فى فصول معتقده على ما أثبته فى مؤلفاته دون ما رُوى عنه غير معزوّ لشىء منها ، وغالبه سخافات يتنزه شعر أبى العلاء عنها ، ولا يخفى وضعها على ذى لبّ ، كما قال الصفدى . كنسبتهم إليه قول القائل :

إذا ما ذكرنا آدماً وفعاله   وتزويجه بنتيه لابنيه فى الخنا

علمنا بأن الخلق من نسل فاجر   وأن جميع الناس من عنصر الزنا

وهذا كلام لا يصدر إلا من معتوه فقد رشده ، وحاشا لأبى العـلاء أن يكونه . ولا يخلو قائله من أحد أمرين : إما أن يكون مقرًّا بالشرائع ، عالما بأن زواج الأخ بأخته لم يكن محرماً فى شريعة سـيدنا آدم عليه الصلاة والسلام ، فيكون قوله هذا ضرباً من الهذيان والهوس . وإما أن يكون منكراً لها ، فيكون ذكره الزنا لا معنى له ، فإن معرفة الحـلال والحرام لا تتأتى إلا من الشرائع . فضلا عما فى البيتين من بذاءة وقلة أدب تنبو عنهما نفس أبى العـلاء . ولست منكراً أنه ذكر سيدنا آدم عليه السلام فى لزوم مالا يلزم بمـا كنت أحب له عدم ذكره ، إلا أنه لا يبلغ فى شناعته إلى هذا الحد ؛ وغاية ما فيـه لومه عليه السلام على أكله من الشجرة ، وتسببه فى أذى ذريته فى الدنيا بخروجـه من الجنة . وسيأتى الكلام على ذلك فى فصل مستقل . وقد رد على هذين البيتين القاضى أبو محمد الحسن بن أبى عقامة اليمنى بقوله :

لعمرك أمّا فيك فالقول صادق   وتكذب فى الباقين مَن شطّ أودنا

كذلك إقرار الفتى لازم له   وفى غيره لغو كذا جاء شرعنا

وليت القاضى تثبّت من نسبة البيتين قبل تكلفه الرد بهذا الشعر الركيك . ونسبوا إليه أشياء أخرى من هذا القبيل أضربْت عن ذكرها تفاديا عن

الاشتغال بالعبث ، إلا أن ألم ببعضها إلماما فيما يأتى من الفصول لمناسبة . كما أنى لم أتعرض لما أخذ عليه فى سقط الزند ؛ لأنه لا يخرج عن كونه من الغلو الواقع لكثير من الشعراء ، وقد كفانا مؤونة البحث فيه بقوله فى خطبته :

« وما وجد لى من غلو علق فى الظاهر بآدمى ، وكان مما يحتمله صفات الله عز سلطانه ، فهو مصروف إليه ، وما صلح لمخلوق سلف من قبل أو غبر أو لم يخلق بعد ، فإنه ملحق به ، وما كان محضا فى المَيْن لا جهة له ، فأستقيل الله العثرة فيه »

وقد أورد شارحه فى التنوير بعض أبيات من ذلك فى شرح الخطبة . ومما لم يذكره قوله ، وهو عندى أشنع ما فى سقط الزند :

باهَتْ بمَهْرَةَ عدنانًا فقلت لها لولا الفُصَيْصِىُّ كان المجد فى مضر

فهذا ولا ريب من محض المَيْن الذى لا جهة له ، وقد استقال الله العثرة فيه ، والله يغفر لمن يشاء . وما عداه ليس فيه شىء سوى الغلوّ المفرط . على أنه لم يأت به إلا فى أبيات معدودة لا تتجاوز العشرة ، ولكن القليل من هذا كثير . وعندى أن لا وجه لاغتفاره لقائله ، وفى غيره من الكلام مندوحة عنه . ولعله سرى لأبى العلاء من أبى الطيب المتنبى ؛ فقد كان ولوعا بهذا النوع . ومنه قوله :

لو كان ذو القرنين أعمل رأيه لما أتى الظلمات صرن شموسا

أو كان صادف رأس عازر سيفُه فى يوم معركة لأعيا عيسى

أو كان لج البحر مثل يمينه ما انشق حتى جاز فيه موسى

سامح الله أبا الطيب ، ما كان أغناه عن هذا الغلو الممقوت ، مع قدرته على نظم ما هو أوقع فى النفوس ، وأخف على الأسماع ؛ وأقبح منه قبول ممدوحه له ، وإجازته عليه . ولا أدرى ما كان عذر المعز فى قبوله قول ابن هانئ :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

اللهم إلا أن يكون ما نقل عن القوم من دعوى الألوهية فى الباطن صحيحا .
وما فى سقط الزند دون هذين القولين بمراحل .

وقد رأيت أبا العلاء شدد النكير على ابن هانئ وأضرابه فى رسالة الغفران ، واستقبح منهم مثل هذا الغلو ، فلعله رجع عنه .

وقد عقد الثعالبى فصلا فى يتيمته لما أخذ على أبى الطيب ، جاء فيه بأشياء ممجوجة . ومع هذا فلم يلهجوا بإكفاره كما فعلوا مع أبى العلاء ؛ وذلك لما وقر فى النفوس من شهرته بالزندقة ، كما ذكرت آنفا ، حتى كادوا يلصقون به كل شعر من هذا القبيل . وقد رأيت بعضهم يروى له قول المتنبى :

أَغَايَةُ الدِّينِ أن تُحْفُوا شوارِبكم ... يا أُمَّةً ضحكت من جهلها الامَمُ

هذا وديوان أبى الطيب مشهور متداول فى الأيدى ، فما ظنك بغير المشهور ؟
وكذلك أبو نواس لما كان مشهورا بالإجادة فى وصف الخمر ، نسبوا إليه فيها ما لم يقله ، فكثر المنحول فى شعره . ونقل عن بعض العلماء أنه كان يقول : أوشك هؤلاء الرواة أن ينسبوا للمجنون كل شعر فيه ليلى . وقوله هذا ينبغى للأديب أن يتنبه له ، فلا يقدم على نسبة قول لقائل بسبب اسم اشتهر به ، ولهج بذكره ، فى شعره ؛ فقد كان للشعراء أسماء شائعة بينهم خفت على ألسنتهم ، وحلت فى أفواههم ، فكانوا كثيرا ما يأتون بها زورا ، نحو : ليلى ، وهند ، وسلمى ، ودعد ، ولبنى ، وعفراء ، وأروى ، وريّا ، وفاطمة ، ومية ، وعلوة ، وعائشة ، والرباب ، وجُمل ، وزينب ، وأشباههن . ذكر ذلك ابن رشيق ، ثم قال : وأما عزة وبثينة فقد حماها كثيّر وجميل ، حتى كأنما حرمتا على الشعراء . انتهى .

وكما اشتهر بعض الشعراء بأسماء ، اشتهر غيرهم بفنون وأنواع غلبت عليهم ، وسهلت على نفوسهم ، فأجادوا القول فيها ؛ كأبى نواس فى الخمر ، والبحترى فى

الطيف ، وابن المعتز فى التشبيهات ، وديك الجن فى المراثى ، وأبى الطيب فى الأمثال والحكم ، وابن الرومى فى الهجاء . بل رأيت بعض شعراء غلبت عليهم ألفاظ استعملوها كثيرا ، كأم دَفر عند المعرى ، وابن ودّى عند الأمير محمود سامى باشا البارودى . ومن تتبع شعر كل شاعر ، ربما لا يعدم أمثالها فيه .

فيكون اقتصارنا على ما أثبته أبو العلاء فى مؤلفاته ، أدعى إلى الإنصاف ، وأبعد عن الاعتساف .

***

واعلم ، أرشدك الله ، أنى لم أنتصر له فى بعض المواضع جنوحا إلى عصبية ، أو استرسالا مع هوى . ولكنى وقفت فى الكثير من أقواله على اعتقاد صحيح ، وإيمان ثابت لا يخالطه شك . فكان تأويل ما عداها بما يحتمله اللفظ ، أولى من التسرع إلى إكفار مؤمن ، والحكم عليه بالزندقة ؛ خصوصا وأن ما يدل على إيمانه صريح فى لفظه ، والذى يوهم محتمل لوجهين ، فحمله على ما يوافق الصريح من أحد وجهيه أحق وأصوب . فإذا رأيت شيئاً من ذلك فلا تتسرع فى الإنكار علىّ ، بل عليك بتحسين الظن ، ومراجعة النظر ، تجد ما قلته غير بعيد . وحسبك ما أثاروه على الإمام أبى حامد الغزالى فى قوله : ليس فى الإمكان أبدع مما كان ، حتى وضعوا فيه المؤلفات ، وشغلوا الناس بالترهات . ولا شك أنه لم يُرد بقوله هذا ما ذهبوا إليه وتأولوه . وأى مسلم يخالجه ريب فى عقيدة هذا الإمام ، وهو حجة الإسلام ؟

ولله درّ أبى العلاء حيث يقول :

جِوَارُكَ هـذا العالَمَ اليومَ نكبةٌ ... عليكَ وليس البَيْنُ عنه مُيَسَّرا

سيَعْلَمُ ذاكَ المُدَّعِى صِحَّةَ الهُدَى ... متى كانَ حَقٌّ أيُّنا كانَ أخْسَرا

ويقول :

لحى اللهُ قوماً إذا جئتهم   بصدق الأحاديث قالوا كَفَرْ

ويقول :

أما فى الأرض من رجلٍ لبيبٍ   فيفرق بين إيمان وكفر

وقال أيضاً :

لا تقيد لفظى علىّ فإنى   مثـــل غيرى تكلُّمى بالمجاز

ومثله قوله :

وليس على الحقائق كلُّ قولى   ولـكن فيه أصناف المجاز

فصل فى معتقده فى الله

من زعم أن أبا العلاء كان من منكرى وجود الإله جل وعلا ، فقد زعم باطلا ، وأسرف فى الشطط ، ودلّ على جهله بحقيقة معتقده . وهيهات أن تنهض له حجة ، أو يجد لزعمه مستندا ، لو طالبناه بالدليل .

ونحن مثبتون فى هذا الفصل من أقواله ما ليس وراءه متسع لطاعن ، أو مجال لمتقول ، و بادئون منها بثلاثة أقوال ، ربما خفى المراد منها على كثيرين ، فأوّلوها على غير ما ينبغى أن تؤول ، ثم نتبعها بما يكشف الرين عن عقيدة الرجل فى خالقه .

***

أولها قوله :

قُلْتُمْ لَنَا صَانِعٌ حَكِيمٌ   قُلْنَا : صَدَقْتُمْ ، كَذَا نَقُولُ

زَعَمْتُمُوهُ بِـلَا مَكَانٍ   وَلَا زَمَانٍ أَلَا فَقُولُوا

هَذَا كَلَامٌ لَهُ خَبِيٌّ   مَعْنَاهُ لَيْسَتْ لَنَا عُقُولُ

وليس فى هذه الأبيات إنكار لوجود الإله ، وحسبك منها قوله : « قلنا صدقتم ، كذا نقول » ، لكن يؤخذ من ظاهرها إثبات الزمان والمكان له تعالى ، وهو ما لا يقول به إلا المجسّمة وأضرابهم ، تنزه الله عما يقولون . وقد ذكر صاحب معاهد التنصيص أن الفخر الرازى أورد هذه الأبيات فى كتابه الموسوم بالأربعين ، وأعقبها بقوله : « وقد هذى هذا فى شعره » ، وقد وقفت على نسختين من هذا الكتاب فلم أجده قال ذلك ، فلعل العبارة تحرفت على صاحب المعاهد ، فتوهم

منها ما ذكره. ولما كان المقام يحتاج إلى تفصيل لاستيضاح ما يرمى إليه أبو العلاء، اقتضى أن ننقل إليك عبارة الأربعين، ثم نعقبها بما ظهر لنا فى هذه الأبيات. قال «الفخر» فى مبحث حدوث العالم، وإيراد شبهات المخالفين وردها:

«السؤال الرابع: إذا قلنا كان الله موجودا فى الأزل، وسيكون موجودا فى الأبد، فقولنا كان يفيد أن أمرا كان موجودا وحاصلا، وقد انقضى وما بقى. ويكون يفيد أن أمرا سيصير موجودا وحاصلا، وبعدُ ما حصل. فإذن كل ما يصدق عليه أنه كان وسيكون، فهو محكوم عليه بكونه متجددا متغيرا، فذات الله تعالى لما كان واجب الدوام، ممتنع التغير، وجب أن لا يصدق عليه ألبتة أنه كان فى الأزل، وسيكون فى الأبد، وأنه كائن الآن. ثم لما جربنا عقولنا وجدناها حاكمة بأن كل ما لا يصدق عليه أنه كان قبل وسيكون بعد وأنه كائن الآن، فهو عدم محض. وعند هذا قال المنكرون إنكم لما أثبتم ذاته منزهة عن الجهات والأيون والأوضاع، خرج هذا الإثبات عن العقل، واقترب من العدم المحض؛ ثم إنكم لما أثبتموه منزها عن أن يصدق عليه قولنا كان ويكون وهو كائن، فهذا تصريح بالعدم المحض. فإن أدخلتموه تحت قولنا كان ويكون وهو كائن، اقتضى ذلك الحكم بكونه متجددا متغيرا، فكيف الخلاص من العقد المحيرة، والمضايق المضلة المعمية. ونظم المعرى هذا المعنى فى شعر له فقال...» انتهى.

ثم أورد الأبيات، إلا أنه روى مكان قوله «زعمتموه»، «ثم زعمتم» وشرع فى الرد على هذا السؤال. فقال:

«الجواب عن السؤال الرابع: وهو قوله إن كل ما يصدق عليه كان ويكون فهو متجدد متغير، فنقول: المراد من قولنا كان ويكون استمراره مع الأزمنة

الآتية والأزمنة الماضية ، من غير أن يكون متغيرا بحسب تغير هذه الأزمنة ؛ وهذا المعنى لا يدركه إلا العقل الذى نوره الله تعالى بنور هدايته ، وإن كان الوهم والخيال يعجزان عنه . » . انتهى كلامه .

ثم ساق حجج المشايخ على بقاء الصانع بما يخرج عن قصدنا هنا .

ولا يخفى ما فى قوله إن هـذا المعنى لا يدركه إلا العقل الذى نوره الله بنور هدايته . فإذا علمت هذا ، ثم علمت أن مذهب السلف رضى الله عنهم فى الصفات النقلية ، كالاستواء على العرش ، والنزول إلى السماء الدنيا ونحوها ، أنها صفات ثابتة وراء العقل ما كلفنا إلا اعتقاد ثبوتها والتصديق بها من غير تفسير ولا تأويل ، مع اعتقاد عدم التجسيم والتشبيه ، لئلا يضادّ النقل العقل — ظهر لك أن عبارة أبى العلاء إنما ترمى إلى هذا المعنى ، وتشير إلى هذا القصد ؛ فمراده أن مثل هذه الأمور لا تتسع العقول لإدراكها ، بل هى مما استأثر الله بعلمه . وليس فى الأبيات ما يمنع من حملها على ذلك . بل كيف يتصور فى الرجل اعتقاد التجسيم ونحوه ، وهو القائل فى موضع آخر :

تَعَالَى اللهُ وَهْوَ أَجَلُّ قَدْرًا مِنَ ٱلْإِخْبَارِ عَنْهُ بِالتَّعالِى

ومن يذهب فى التنزيه إلى هـذا الحد لا يتصور فيه اعتقاد التجسيم . ثم اعلم أن مذهب السلف يرجحه كثيرون من المتكلمين . وكان الإمامان مالك والزهرى يقولان به ، بل هو عقيدة الإمام أحمد بن حنبل وأتباعه إلى يومنا هذا . وإنما رجحوه لما فيه من السلامة من تعيين معنى قد يكون غير مراد له تعالى ، وهو الأوفق لحمل العامة عليه ، صيانة لعقولهم عن الزلل ، كما فصله الإمام الغزالى فى « إلجام العوام ، عن علم الكلام » . وقد وقفت على فصل للفخر الرازى فى تفضيل هذا المذهب ، ذكره فى تفسيره الكبير عند قوله تعالى : « ثُمَّ ٱسْتَوَى

عَلَى العَرْشِ » ، مع أن هذا الإمام من كبار الأشعرية القائلين بالتأويل .

ولله در الإمام خميس بن على الواسطى حيث يقول :

تَرَكْتُ مَقَالاَتِ الْكَلاَمِ جَمِيعَهَا ... لِمُبْتَدِعٍ يَدْعُو بِهِنَّ إلى الرَّدَى

وَلاَزَمْتُ أَصْحَابَ الْحَدِيثِ لِأَنَّهُمْ ... دُعَاةٌ إلى سُبْلِ الْمَكَارِمِ وَالْهُدَى

وَهَلْ تَرَكَ الْإِنْسَانُ فِي الدِّينِ غَايَةً ... إذَا قَالَ قَلَّدْتُ النَّبِيَّ مُحَمدا

على أن كثيرا من أئمة الكلام أيضا يرجحون مذهب الخلف فى تأويلهم هذه الصفات تأويلا يليق بجلال المولى عز وجل ، لما فى هذا المذهب من مزيد الإيضاح والرد على الخصوم . ولكل من أصحاب المذهبين وجهة لا يريدون بها إلا الوصول إلى الحق ، فرضى الله عنهم أجمعين ، وجزاهم عنا أحسن الجزاء .

***

الثانى من الأقوال : قوله :

أَمَّا الإِلَهُ فَأَمْرٌ لَسْتَ مُدْرِكَهُ ... فَاحْذَرْ لِجِيلِكَ فَوْقَ الْأَرْضِ إسْخَاطا

وليس فى هذا أيضا إنكار لوجود الله تعالى ، و إنما فيه الإيماء إلى عجز البشر عن إدراك كنه ذاته تعالى . ولعمرى ما نطق إلا بالصواب . وأين لمخلوق ضعيف لا يصل إلى إدراك كنه نفسه من الوصول إلى هـذا المقام ؟ وفى كتاب تأييد الحقيقة العلية للسيوطى ، قال شارح منازل السائرين فى بيان عجز العقول عن إدراك الذات المقدس ، وترك الفكرة فى ذلك : « يعرف العبد أن عقله يعجز عن إدراك كل الموجودات من المخلوقات فضلا عن خالقها ، وقد عجزت العقول عن إدراك الخاصية التى يجذب بها المغناطيسُ الحديد ، والسَّقَمُونيا الأخلاطَ الصفراوية ، إلى غير ذلك ، مع القطع بوجودها . فإذا عرف العبد عجزه ، وأيس من الوقوف على غاية مطلبه ، حمله ذلك على التمسك بحبل التعظيم والإجلال ، وسلم بذلك من الوقوع فى شىء من الاختلال . » . انتهى .

وفيما نقل عن أمير المؤمنين كرم الله وجهه أنه كان يقول : « التوحيد أن لا تتوهمه » ويقول : « كل ما أدركته فهو غيره » . وكان الصدّيق رضى الله عنه يقول : « يا من غاية معرفته القصور عن معرفته » . أما قوله تعالى : « لَا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَارُ » ، فالأكثرون على حمل البصر هنا على الجارحة ، من حيث إنها محل القوة . وقيل هو إشارة إلى ذلك وإلى الأوهام والأفهام . فالبيت على هذا عَقْدٌ لمعنى هذه الآية الكريمة . وقريب منه قوله من قطعة أخرى :

وإنَّ إلٰهى إلٰهُ السَّما ءِ رَبُّ ٱلْوُهُودِ وَرَبُّ النَّبَكْ

سَأَلْتُ ٱلْمُحَدِّثَ عَنْ شَأْنِهِ فما زَالَ يَضْعُفُ حَتَّى ٱرْتَبَكْ

***

الثالث : قوله :

مَتَى عَرَضَ ٱلْحِجَا لِلّٰهِ ضَاقَتْ مَذَاهِبُهُ عَلَيْهِ وَإِنْ عَرُضْنَهْ

ومعناه ظاهر بَيِّن ، يشبه ما فى القول السابق . وقد فسره بعضهم بقوله : « أى لايزال عقل الإنسان يتسع مجاله فى الأمور ، ويستعمل أنواع القياس ؛ حتى ينتهى إلى الله تعالى . فإذا انتهى إليه ضاقت المذاهب عليه ، فلم يعلم أكثر من أنه سبحانه خالق المخلوقات . » . انتهى .

وقد أحسن أبو العلاء فى قوله بعد هذا البيت :

وَقَدْ كَذَبَ ٱلَّذِى يَغْدُو بِعَقْلٍ لِتَصْحِيحِ الشُّرُوعِ وَقَدْ مَرِضْنَهْ

الشروع : جمع شرع . قال بعض الفضلاء : « مَرَضُ الشرائع أن تخفى أسبابها ، فلا يُوقَفُ على حقائقها ، فيظن الناظر فيها أنها فاسدة ، وإنما الفاسد عقله ، لأنه تعاطى سرًّا غامضا ليقف عليه . » . انتهى .

قلت : فليت المتبجحين كل يوم بإصلاح الدين الإسلامىّ ليوافق روح العصر كما يزعمون ، ينظرون نظرة فى هذا البيت ، نسأل الله لنا ولهم الهداية .

***

وبعد ، فليس فى كلام أبى العلاء ما يوهم نقصا فى حق الخالق سبحانه وتعالى ، فضلا عن إنكار وجوده ، غير هذه الأقوال الثلاثة . وقد عرفت أنها ليست فى شىء من ذلك ألبتة . فلم يبق إلا أن نسرد لك عيون أقواله الدالة على حسن معتقده فى خالقه . قال :

لِلْمَلِيكِ الْمُذَكَّرَاتُ عَبِيدٌ ... وَكَذَاكَ الْمُؤَنَّثَاتُ إِمَاءُ
فَالْهِلَالُ الْمُنِيفُ وَالْبَدْرُ وَالْفَرْ ... قَدُ وَالصُّبْحُ وَالثَّرَى وَالْمَاءُ
وَالثُّرَيَّا وَالشَّمْسُ وَالنَّارُ وَالنَّثْـ ... رَةُ وَالْأَرْضُ وَالضُّحَى وَالسَّمَاءُ
هَـٰذِهِ كُلُّهَا لِرَبِّكَ مَا عَا ... بَكَ فِي قَوْلِ ذَلِكَ الْحُكَمَاءُ
خَلِّنِي يَا أُخَيَّ أَسْتَغْفِرُ اللَّـ ... ـهَ فَلَمْ يَبْقَ فِيَّ إِلَّا الذَّمَاءُ

وقال :

إِذَا قِيلَ لَكَ اُخْشَ اللَّـ ... ـهَ مَوْلَاكَ فَقُلْ : آرَا

آرا : كلمة فارسية ، معناها : نعم . وقال :

بِعِلْمِ إِلٰهِى يُوجَدُ الضَّعْفُ شِيمَتِي ... فَلَسْتُ مُطِيقًا لِلْغُدُوِّ وَلَا الْمَسْرَى
غَبَرْتُ أَسِيرًا فِي يَدَيْهِ وَمَنْ يَكُنْ ... لَهُ كَرَمٌ تُكْرَمْ بِسَاحَتِهِ الْأَسْرَى
أَأُصْبِحُ فِي الدُّنْيَا كَمَا هُوَ عَالِمٌ ... وَأُدْخَلُ نَارًا مِثْلَ قَيْصَرَ أَوْ كِسْرَى
وَإِنِّي لَأَرْجُو مِنْهُ يَوْمَ تَجَاوُزٍ ... فَيَأْمُرُ بِي ذَاتَ الْيَمِينِ إِلَى الْيُسْرَى
وَإِنْ أَغْنَ بَعْدَ الْمَوْتِ عِمَّا يَرِيبُنِي ... فَمَا حَظِّيَ الْأَدْنَى وَلَا يَدِيَ الْخُسْرَى

اليسرى هنا : من اليسر ضد العسر ، وليست من اليسار ضد اليمين . وقال :

اللهُ لا رَيْبَ فِيهِ وَهْوَ مُحْتَجِبٌ بَادٍ وَكُلٌّ إلى طَبْعٍ لَهُ جَذَبَا

وقال :

لَا تَكْذِبَنَّ فَإِنْ فَعَلْتَ فَلَا تَقُلْ كَذِباً عَلَى رَبِّ السَّمَاءِ تَكَسُّبَا

فَاللهُ فَرْدٌ قَادِرٌ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُدْعَى لِآدَمَ صُورَةٌ أَوْ تُحْسَبَا

وَإِذَا انْتَسَبْتَ فَقُلْتَ إِنِّى وَاحِدٌ مِنْ خَلْقِهِ فَكَفَى بِذَاكَ تَنَسُّبَا

وفى معنى البيت الثانى قوله من قطعة أخرى :

مَا زَالَ مُلْكُ اللهِ يَظْهَرُ دَائِباً إِذْ آدَمٌ وَأَبُوهُ فِى الإِضْمَارِ

لعله أراد بأبيه : التراب الذى خلق منه ، وفى بعض النسخ : و بنوه ، وهو ظاهر .

وقال :

وَلَمْ يَحْبُنِى أَحَدٌ نِعْمَةً وَلَكِنَّ مَوْلَى الْمَوَالِى حَبَا

نَصَحْتُكَ فَاعْمَلْ لَهُ دَائِباً وَإِنْ جَاءَ مَوْتٌ فَقُلْ مَرْحَبَا

ومن طمعه فى عفو ربه ، قوله :

أَرَى ا ُبَّ مِرْآةَ اللَّبِيبِ وَمَنْ يَكُنْ مَرَائِيَهُ الإِخْوَانُ يُصْدَقْ وَيُكْذَبِ

أَأَخْشَى عَذَابَ اللهِ وَاللهُ عَادِلٌ وَقَدْ عِشْتُ عَيْشَ الْمُسْتَضَامِ الْمُعَذَّبِ

ومثله قوله :

وَمَا أَنَا يَائِسٌ مِنْ عَفْوِ رَبِّى عَلَى مَا كَانَ مِنْ عَمْدٍ وَسَهْوِ

ومثله قوله أيضاً :

لِمَ لَا أُؤَمِّلُ رَحْمَةً مِنْ قَادِرٍ وَالسُّؤْلُ يُطْلَبُ فِى السَّحَابِ الأَسْوَلِ

وقال يذكر خوفه من العقاب :

طُوبَى لِمَوْءُودَةٍ فِي حَالِ مَوْلِدِهَا ظُلْمًا فَلَيْتَ أَبَاهَا ٱلْفَظَّ مَوْءُودُ

يَارَبِّ هَلْ أَنَا بِٱلْغُفْرَانِ فِي ظَعَنِي مُزَوَّدٌ إِنَّ قَلْبِي مِنْكَ مَزْءُودُ

وقريب منه قوله :

قَدْ فَنِيَ ٱلْوَقْتُ فَمَا حِيلَتِي إِذَا ٱنْقَضَى ٱلإِمْهَالُ وَٱلْمَهَلُ

إِنْ خَتَمَ ٱللهُ بِغُفْرَانِهِ فَكُلُّ مَا لَاقَيْتُهُ سَهْلُ

وقال فى خوفه وطمعه :

أَمَّا ٱلْحَيَاةُ فَلَا أَرْجُو نَوَافِلَهَا لَكِنَّنِي لِإِلٰهِي خَائِفٌ رَاجِ

رَبِّ ٱلسِّمَاكِ وَرَبِّ ٱلشَّمْسِ طَالِعَةً وَكُلِّ أَزْهَرَ فِي ٱلظَّلْمَاءِ خَرَّاجِ

ولله دره حيث يقول :

لِيَفْعَلِ ٱلدَّهْرُ مَا يَهُمُّ بِهِ إِنَّ ظُنُونِي بِخَالِقِي حَسَنَهْ

لَا تَيْأَسُ ٱلنَّفْسُ مِنْ تَفَضُّلِهِ وَلَوْ أَقَامَتْ فِي ٱلنَّارِ أَلْفَ سَنَهْ

وقال :

أَرَى ٱنْكِفَاتِي إِلَى ٱلْمَنَايَا أَغْنَى عَنِ ٱلْأُسْرَةِ ٱلْكُفَاةِ

أُثْبِتُ لِي خَالِقًا حَكِيمًا وَلَسْتُ مِنْ مَعْشَرٍ نُفَاةِ

وقال :

سُبْحَانَ مَنْ بَرَأَ ٱلنُّجُومَ كَأَنَّهَا دُرٌّ طَفَا . مِنْ فَوْقِ بَحْرٍ مَائِجِ

لَوْ شَاءَ رَبُّكَ صَيَّرَ ٱلشَّرَطَيْنِ مِنْ هٰذِي ٱلْكَوَاكِبِ عِنْدَ أَدْنَى ثَائِجِ

وَٱلتَّاجُ تَقْوَى ٱللهِ لَا مَا رَصَّعُوا لِيَكُونَ زَيْنًا لِلْأَمِيرِ ٱلتَّائِجِ

وقال من أخرى :

فَزِعُوا إِلَى ذِكْرِ ٱلْمَلِيكِ وَحَسْبُهُمْ أُنْسًا بِذَلِكَ فِي ٱلضَّمِيرِ ٱلْوَاجِ

وقال :

أُحَاذِرُ السَّيْلَ وَمَنْ لِي بِمَنْجَاةٍ إِذَا أَسْمَعَنِي رَعْدَهْ

وَالْوَقْتُ لَا يَفْتَأُ فِي مَرِّهِ مُقَرِّباً مِنْ أَجَلٍ بُعْدَهْ

فَرَاقِبِ الْخَالِقَ بِالغَيْبِ فِي الْقِيمَةِ وَالنِّيمَةِ وَالْقِعْدَهْ

أراد الهيئة من القيام والنوم والقعود ، فجاء بها على فِعْلَة بكسر الأول . وهو عقد لمعنى قوله تعالى : « الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ » ومعنى الآية ، والله أعلم : الذين لا يغفلون عنه تعالى فى عامة أوقاتهم ، كما ذهب إليه بعض المفسرين .

وقال أبو العلاء :

إِذَا كُنْتَ مِنْ فَرْطِ السَّفَاهِ مُعَطِّلاً فَيَاجَاحِدُ أُشْهَدُ أَنَّنِي غَيْرُ جَاحِدِ

أَخَافُ مِنَ اللهِ الْعُقُوبَةَ آجِلاً وَأَزْعُمُ أَنَّ الْأَمْرَ فِي يَدِ وَاحِدِ

فَإِنِّي رَأَيْتُ الْمُلْحِدِينَ تَعُودُهُمْ نَدَامَتُهُمْ عِنْدَ الْأَكُفِّ اللَّوَاحِدِ

ليت شعرى كيف يُرْمَى بالإلحاد من يخاطب الملحدين بمثل هذا الكلام ؟

وفيهم يقول أيضاً :

أَمَّا الْمُجَاوِرُ فَارْعَهُ وَتَوَقَّهُ وَاسْتَعْفِ رَبَّكَ مِنْ جِوَارِ الْمُلْحِدِ

لَيْسَ الَّذِي جَحَدَ الْمَلِيكَ وَقَدْ بَدَتْ آيَاتُهُ بِأَخٍ لِمَنْ لَمْ يَجْحَدِ

ويقول :

إِذَا مَا أَلْحَدَتْ أُمَمٌ بِجَهْلٍ فَقَابِلْهَا بِتَوْحِيدِ السُّيُوفِ

كَأَنَّا فِي سَجَايَانَا نُقُودٌ كَثِيرَاتُ الْبَهَارِجِ وَالزُّيُوفِ

وَهَذِي الْأَرْضُ لِلْمَلِكِ الْمُرَجَّى نُلِمُّ بِهَا كَإِلْمَامِ الضُّيُوفِ

وقال :

تَعَالَى اللهُ كَمْ مَلِكٍ مَهِيبٍ ... تَبَدَّلَ بَعْدَ قَصْرٍ ضِيقَ لَحْدِ

أُقِرُّ بِأَنَّ لِي رَبًّا قَدِيراً ... وَلا أُلْقَى بَدَائِعَهُ بِجَحْدِ

وقال :

بِوَحْدَانِيَّةِ الْعَلَّامِ دِنَّا ... فَذَرْنِي أَقْطَعُ الْأَيَّامَ وَحْدِي

سَأَلْتُ عَنِ الْحَقَائِقِ كُلَّ قَوْمٍ ... فَمَا أَلْفَيْتُ إِلَّا حَرْفَ جَحْدِ

سِوَى أَنِّي أَزُولُ بِغَيْرِ شَكٍّ ... فَفِي أَيِّ الْبِلَادِ يَكُونُ لَحْدِي

وقال :

وَلَقَدْ وَجَدْتُ وَلَاءَ قَوْمٍ سُبَّةً ... فَاصْرِفْ وَلَاءَكَ لِلْقَدِيمِ الْمُوجِدِ

وقال :

يُسَمُّونَ بِالْجَهْلِ عَبْدَ الرَّحِيمِ ... وَعَبْدَ الْعَزِيزِ وَعَبْدَ الصَّمَدْ

وَمَا بَلَغُوا أَنْ يَكُونُوا لَهُ ... عَبِيداً وَذَلِكَ أَقْصَى الْأَمَدْ

وَلَكِنَّهُ خَالِقُ الْعَالَمِيـ ... ـنَ ذَائِبِ أَجْزَائِهِمْ وَالْجَمَدْ

تَعَمَّدَهُ يُغْنِكَ بِالْهَدْيِ أَنْ ... تُدَرِّسَ مُغْنِيَهُمْ وَالْعُمَدْ

المُغْنِي ، والعُمَد : كتابان أحدهما فى علم الكلام ، والآخر فى الأصول ، وهما للقاضى عبد الجبار بن أحمد ، من كبار أئمة المعتزلة ، المتوفى سنة خمس عشرة أو ست عشرة وأربعمائة . ولأبى محمد عبد الله بن العباسى الرامَهُرْمزى المعتزلى كتاب اسمه المغنى أيضاً ، إلا أن ذكره مقروناً بالعُمَد يدل على أن المراد الأول .

وقال أبو العلاء :

كَمْ غَيَّرَتْنَا بِأَمْرٍ خُطَّ حَادِثَةٌ ... وَرَبُّنَا اللهُ لَمْ تُلْمِمْ بِهِ الْغِيَرُ

وقال :

مَا زَالَ رَبُّكَ ثَابِتاً فِي مُلْكِهِ   يَنْمِى إِلَيْهِ لِلعِبَادِ جُؤَارُ

وقال :

وَالْجَهْلُ أَغْلَبُ غيرَ عِلْمٍ أَنَّنَا   نَفْنَى وَيَبْقَى الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ

وقال فى الإقرار بالذنوب من قطعة :

غُفْرَانَ رَبِّكَ قَلَّ مَا فَعَلَ الْفَتَى   ما لَيْسَ مُحْوِجَهُ إلى اسْتِغْفَارِ

صدق والله ، فغفرانك اللهم . وقال :

رَجَزَتْ بتَسْبِيحِ الْمَلِيكِ حَمَامَةٌ   بالشَّامِ تُوطِنُ أَوْ تَحُلُّ حِجَازَا

وَالطَّيْرُ مِثْلُ الإِنْسِ تَعْرِفُ رَبَّهَا   وَتَرَى بِهَا الشُّعَرَاءَ وَالرُّجَّازَا

وقال فى معناه :

سَبَّحَ اللهَ نَاعِبٌ ، صَوْتُهُ : غَا   قِ ، وَكُدْرِيَّةٌ تَصِيحُ : قَطَا

وقال :

صَنْعَةٌ عزَّتِ الأَنَامَ بِلُطْفٍ   وَعَزَتْهَا إلى الْقَدِيرِ الْعَوَازِى

مَلِكٌ أَنْشَأَ السَّمَوَاتِ فَالْبَدْ   رُ لَدَيْهِ فِي صُورَةِ الْجِلْوَازِ

كَمْ لَهُ كَوْكَبٍ أَبَرَّ وَأَزَّ النَّـ   ـاسَ حتَّى سَطَا عَلَى أبرواز

وقال :

لَنَا رَبٌّ وَلَيْسَ لَهُ نَظِيرٌ   يُسَيِّرُ أَمْرُهُ جَبَلًا وَيُرْسِى

تَظَلُّ الشَّمْسُ مَاهِنَةً لَدَيْهِ   فما بِلْقِيسُ أَمْ ماسِتُ برس

وقال :

إِذَا كُنْتَ بِاللهِ الْمُهَيْمِنِ وَاثِقاً   فَسَلِّمْ إِلَيْهِ الأَمْرَ فِي اللَّفْظِ وَاللَّحْظِ

يُدَبِّرُكَ خَلَّاقٌ يُدِيرُ مَقَادِراً تُخَطِّيكَ إحْسَانَ الغَمَائِمِ أَو تُحْظِى

وقال :

وَسِرْتُ عُمْرِى إلى قبْرِى على مَهَلٍ وَقَدْ دَنَوْتُ فَحُقَّ الْخَوْفُ وَالْهَلَعُ

ما نَحْنُ أمْ ما بَرَايَا عالَمٍ كُثُرٍ فِي قُدْرَةٍ بَعْضُهَا الأفْلاكُ يَبْتَلِعُ

وقال :

نَدِينُ بأَنَّ اللهَ وِتْرٌ وخَوْفُهُ رَشَادٌ فَصَلُّوا الْوِتْرَ فِي الدَّهْرِ والشَّفْعَا

وقال :

الْأَرْضُ لِلهِ ما اُسْتَحْيِي الْحُلولُ بِهَا أَنْ يَدَّعُوهَا وَهُمْ فِي الدَّارِ أَضْيَافُ

تَنَازَعُوا فى عَوَارِىٍّ فَبَيْنَهُمُ نَبْلٌ حُطَامٌ وَأَرْمَاحٌ وَأَسْيَافُ

إنْ خَالَفُوكَ وَلَمْ يَجْرُرْ خِلَافُهُمُ شَرًّا فَلا بأْسَ إنَّ النَّاسَ أَخْيَافُ

أخياف : أى مختلفون ، ومنه : إخوة أخياف ، إذا كانت أمهم واحدة وآباؤهم شتى ؛ فإذا كانوا لأب واحد من أمهات شتى ، قيل : هم أبناء علات .

وقال فى معنى ما تقدم :

هُوَ الْفَلَكُ الدَّوَّارُ أَجْرَاهُ رَبُّهُ عَلَى ماتَرَى مِنْ قَبْلِ أَنْ تَجْرِىَ الْفُلْكُ

لَهُ الْعِزُّ لَمْ يَشْرَكْهُ فِي الْمُلْكِ غَيْرُهُ فَيَاجَهْلَ إنْسَانٍ يَقُولُ : لِىَ الْمُلْكُ

ومثله قوله :

وَيَقُولُ دَارِى مَنْ يَقُولُ وَأَعْبُدِى مَهْ فَالْعَبِيــدُ لِرَبِّنَا وَالدَّارُ

وقوله أيضا :

وَالْمُلْكُ لِلهِ مَنْ يَظْفَرْ بِنَيلِ غِنًى يَرْدُدْهُ قَسرا وتَضْمَنْ نَفْسُهُ الدَّرَكا

لَوْ كانَ لِى أَوْ لغَيْرِى قَدْرُ أنمُلَةٍ مِنَ التُّرابِ لَكانَ الْأَمْرُ مُشْتَرَكا

ذكر الإسحاقى فى تاريخه أن السلطان سليما العثمانى لما فتح مصر نزل بالروضة فى مكان أعد له بالمقياس ، ونقل عن القطبى أنه رأى هذين البيتين مكتوبين بخطه بأعلى المقياس على الرخام الأبيض كتابة خفية لا تكاد تظهر إلا بالتأمل ، ومرقوم تحتهما : كتبه الفقير سليم . ثم قال : ولعمرى إن كان هذان البيتان من نظم المرحوم فهما فى غاية البيان والبراعة ، ونهاية فى الشعر العربى الفصيح المنسجم ؛ وإن كان تمثل بهما فهما أيضاً مرتبة عالية فى حسن التمثيل ولطف الاستحضار . انتهى . قلت : أما كونهما له فقد ثبت خلافه ؛ فلم يبق إلا أنه تمثل بهما . وما هو بكبير على فضل هذا السلطان واطلاعه .

وسلاطين آل عثمان ، وإن اشتهر عنهم قلة الاهتمام باللغة العربية ، فقد نبغ منهم جماعة فيها . منهم : السلطان محمد الفاتح ؛ وفضله فى الاشتغال بالعربية غير منكور . ومن شيوخه المولى خواجه زاده ، قرأ عليه متن عز الدين الزنجانى فى التصريف ؛ وكانت العلماء تجتمع عنده للمناظرة ، وتعجبه مباحثاتهم . ويحكى أنه كان فى صغره غير مهتم بالطلب ، فأمر والده السلطان مراد المولى شمس الدين الكورانى بالتشديد عليه ، فصدع بأمره ، حتى ضربه مرة ضرباً موجعاً ، ولم يزل به حتى ختم القرآن الكريم فى مدة يسيرة . ومنهم : السلطان مراد الثالث ابن سليم المتوفى سنة ١٠٠٣ . كان أجمل أهل بيته علماً وأدباً وذكاء وفهماً . اشتغل بالتصوف وبرع فيه ، ونظم الشعر باللغات الثلاث : الفارسية والتركية والعربية . ومنهم : السلطان أحمد بن محمد حفيد السلطان مراد المارّ ذكره . كان من فضلاء وقته ، مال للأدب والمحاضرات ، ونظم الشعر بالتركية .

ومما يروى له من الشعر العربىّ قوله :

ظَبْىٌ يَصُولُ وَلَا وُصُولَ إِلَيْهِ ‏ ‏ جَرَحَ الْفُؤَادَ بِصَارِمَىْ لَحْظَيْهِ

مَا قَامَ مُعْتَدِلًا وَهَزَّ قَوَامَهُ ... إِلَّا تَهَتَّكَتِ السُّتُورُ عَلَيْهِ
يَسْقِي المُدَامَةَ مِنْ سُلَافَةِ رِيقِهِ ... وَيَخُصُّنَا بِالْغُنْجِ مِنْ جَفْنَيْهِ
عَيْنَاهُ نَرْجِسُنَا وَآسُ عِذَارِهِ ... رَيْحَانُنَا وَالْوَرْدُ مِنْ خَدَّيْهِ
يَاشَعْرُ فِي بَصَرِي وَلَا فِي خَدِّهِ ... إِنِّي أَغَارُ مِنَ النَّسِيمِ عَلَيْهِ
عَجَبِي لِسُلْطَانٍ يَعِزُّ بِعَدْلِهِ ... وَيَجُورُ سُلْطَانُ الغَرَامِ عَلَيْهِ
لَوْلَا أَخَافُ اللهَ ثُمَّ جَحِيمَهُ ... لَعَبَدْتُهُ وَسَجَدْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ

والبيتان الأخيران من قصيدة لابن رزيك الشيعي ، أتى بهما السلطان على سبيل التضمين .

رجع إلى شعر أبي العلاء

فمن دلائل إيمانه بالله ، وتفويضه الأمر إليه ، قوله :

رَدَدْتُ إِلَى مَلِيكِ الْخَلْقِ أَمْرِي ... فَلَمْ أَسْأَلْ مَتَى يَقَعُ الْكُسُوفُ
فَكَمْ سَلِمَ الْجَهُولُ مِنَ الْمَنَايَا ... وَعُوجِلَ بِالْحِمَامِ الْفَيْلَسُوفُ

وقال :

وَالرُّوحُ طَائِرُ مَحْبَسٍ فِي سِجْنِهِ ... حَتَّى يَمُنَّ رَدَاهُ بِالإِطْلَاقِ
سَيَمُوتُ مَحْمُودٌ وَيَهْلِكُ آلِكٌ ... وَيَدُومُ وَجْهُ الْوَاحِدِ الخَلَّاقِ

وقال :

أَزُولُ وَلَيْسَ فِي الْخَلَّاقِ شَكٌّ ... فَلَا تَبْكُوا عَلَيَّ وَلَا تُبَكُّوا
خُذُوا سِيَرِي فَهُنَّ لَكُمْ صَلَاحٌ ... وَصَلُّوا فِي حَيَاتِكُمُ وَزَكُّوا

وقال :

تَسَمَّتْ رِجَالٌ بِالْمُلُوكِ سَفَاهَةً ... وَلَا مُلْكَ إِلَّا لِلَّذِي خَلَقَ الْمُلْكَا

أَرَى فَلَكاً مَا دَارَ إِلَّا لِحِكْمَةٍ ... فَلاَ تَنْسَ مَنْ أَجْرَى لِحَاجَتِكَ الْفَلَكَا

وقال :

إِنْ يُرْسِلِ النَّفْسَ فِى اللَّذَّاتِ صَاحِبُهَا ... فَمَا يُخَلِّدْنَ صُعْلُوكاً وَلاَ مَلِكَا

وَمَنْ يُطَهِّرْ بِخَوْفِ اللهِ مُهْجَتَهُ ... فَذَاكَ إِنْسَانُ قَوْمٍ يُشْبِهُ الْمَلَكَا

وقال :

شِفَاءُ مَا بِكَ أَعْيَانِي وَأَعْيَاكَا ... فَارْجُ الَّذِى هُوَ أَبْدَانِي وَإِيَّاكَا

مَالِي أَرَاكَ غَبِيًّا لَسْتَ تَقْدِرُ أَنْ ... تُحْصِى خُطَاكَ فَهَلْ تُحْصِى خَطَايَاكَا

وقال :

يَا خَالِقَ الْبَدْرِ وَشَمْسِ الضُّحَى ... مُعَوَّلِي فِي كُلِّ حَالِي عَلَيْكْ

وَكُلُّ مَلْكٍ لَكَ عَبْدٌ وَمَا ... يَبْقَى لَهُ مُلْكٌ فَيُدْعَى مُلَيْكْ

قَدْ رَامَتِ النَّفْسُ لَهَا مَوْئِلاً ... فَقُلْتُ : مَهْلاً، لَيْسَ هَذَا إِلَيْكْ

إِنَّ الَّذِى صَاغَكِ يَقْضِى بِمَا ... شَاءَ وَيُمْضِى فَازْجُرِى عَاذِلَيْكْ

الْبَحْرُ فِي قُدْرَتِهِ نُغْبَةٌ ... وَالْفَلَكُ الْأَعْظَمُ فِيهَا فُلَيْكْ

وقال :

إِلَهَ الْأَنَامِ وَرَبَّ الْغَمَامِ ... لَنَا الْفَقْرُ دُونَكَ وَالْمُلْكُ لَكْ

وقال :

فَلاَ تَسْأَلِ الْمَرْءَ الْغَنِيَّ عَطَاءَهُ ... وَرَجِّ الْغِنَى مِنْ رَبِّكَ الْمُتَعَالِي

وقال :

أَمَا تَرَى الشُّهْبَ فِي أَفْلاَكِهَا انْتَقَلَتْ ... بِقُدْرَةٍ مِنْ مَلِيكٍ غَيْرِ مُنْتَقِلِ

وقال :

نَمُوتُ لِأَنَّنَا خُلَفَاءُ نَقْصٍ ... وَيَبْقَى مَنْ تَفَرَّدَ بِالْكَمَالِ

وقال :

حِكَمٌ تدُلُّ علَى حَكِيمٍ قادرٍ   متفرِّدٍ فِي عِزِّهِ بِكمالِ

وقال :

تَوَهَّمَ بعْضُ الْقَوْمِ وَهْماً فَأَضَلُّوا   يَقِينَ أُمُورٍ باتَ يَتبَعُهَا الْوَهْمُ
جَهِلْنَا ، وَلَـكِنْ لِلْخَلائِقِ صانِعٌ   أَقرَّ بِهِ فَسْلٌ مِنَ الْقَوْمِ أَوْ شَهْمُ

وقال فى رد تأثير الأشياء لله تعالى :

وَقدْ يَأْمُرُ اللهُ الْـكِهَامَ إذَا نَبَا   فَيَفْرِي وَقدْ يَنْهَى الْحُسَامَ فَيَـكْهَمُ

وزاد هذا المعنى وضوحا بقوله وأجاد :

لَوْ يَنطِقُ السَّيْفُ نادَى لَيْسَ لِي عَمَلٌ   إِذَا قَضَى مَالِكُ الْأَفْلاكِ أَنضَانِى
مَتَى أَرَادَ فَصَفْحَاىَ اللَّذَانِ هُـمَا   بَحْرُ الرَّدَى مِنْ حِيَاضِ الْمَوْتِ حَوْضَانِ
وإِن كَهَمْتُ فَأَمْرُ اللهِ أَكْهَمَنِى   وَإِنْ مَضَيْتُ فَأَمْرُ اللهِ أَمْضَانِى

وقال :

مَا فِي بَنِي آدمٍ غَـنِيٌّ   بَلْ كُلُّهُمْ مُقْتِرٌ عَدِيمُ
يَغْنَى الذى مَا لَهُ فَنَاءٌ   وَذَلِكَ الْوَاحِدُ الْقَدِيمُ

وقال :

رَأَيْتُ سَجَايَا النَّاسِ فِيهَا تَظَالُمٌ   وَلَا رَيْبَ فِي عَدْلِ الَّذِى خَلَقَ الظُّلْمَا

وقال :

فَسَادٌ وَكَوْنٌ حادِثَانِ كِلاَهُمَا   شَهِيدٌ بِأَنَّ الخَلْقَ صُنْعُ حَكِيمِ

وقال :

أَبِالْقَـدَرِ الْمتاحِ تَدِينُ جِنٌّ   تَسَمَّعُ غَـيْرَ هَائِبَـةِ الرُّجُومِ

وَتعلَمُ أَنَّ مالمْ يُقضَ صَعْبٌ ... فما تَخشى المنيَّةَ في الهُجومِ
بإذنِ اللهِ ينفذُ كلُّ أمرٍ ... فنَهنِهِ فيضَ أدمُعِكَ السُّجومِ
يَجوزُ بحُكمِهِ موتُ الثُّريَّا ... وأنْ تبقى السَّماءُ بلا نجومِ
وكَمْ وَجمَ الفتى مِن بعدِ ضِحكٍ ... وأُضحِكَ بعدَ إفراطِ الوُجومِ

وقال :

إذا مَدَحُوا آدميًّا مَدَحْـ ... ـتُ مَولى المَوالي وربَّ الأُمَمْ
وذاكَ الغنيُّ عنِ المادِحينَ ... ولكن لِنفسي عقدْتُ الذِّمَمْ
لهُ سَجَدَ الشَّامِخُ المُشمَخِرُّ ... على ما بِعِرْنِينِهِ مِنْ شَمَمْ
ومَغفِرَةُ اللهِ مَرجُوَّةٌ ... إذا حُبِسَتْ أعظُمي في الرِّمَمْ

وقال :

أَدِينُ بربٍّ واحِدٍ وتجنُّبٍ ... قبيحَ المساعي حينَ يَظلِمُ دائِنُ

وقال :

إذا ما شئتُمُ دَعَةً وخَفضًا ... فعيشُوا في البريَّةِ خاملينا
ولا يُعقَدْ لكمْ أملٌ بخلقٍ ... وبِيتُوا لِلمُهيمِنِ آمِلينا

وقال :

مَطِيَّتِي الوقتُ الذي ما امتطيتُهُ ... بوُدِّي ولكِنَّ المُهيمِنَ أمطانِي
وما أحَدٌ مُعطِيٌّ واللهُ حارِمِي ... ولا حارِمِي شيئًا إذا هوَ أعطاني

وقال :

لَعَمرِي لَخيرُ الذُّخرِ في كلِّ شِدَّةٍ ... إلهُكَ ترجُو فضلَهُ وَآلاءهُ
ولا مُلْكَ إلا للذي عزَّ وجهُهُ ... ودامَتْ على مرِّ الزَّمانِ عُلاهُ

وقال :

تَهَجَّدَ مَعْشَرٌ لَيْلًا وَنِمْنا ... وَفَازَ بِجِنْدِسٍ مُتَهَجِّدُوهُ

إلهُكَ أوْجَدَ الأشْياءَ جَمْعًا ... فَلا يَفْخَرْ بِشَيْءٍ مُوجِدُوهُ

وَرَبُّكَ أنْجَدَ الأقْوَامَ حَتَّى ... بَنَى أعْلَى القُصُورِ مُنَجِّدُوهُ

فَمَجِّدْهُ فَلَمْ يَخْسَرْ أُناسٌ ... أنَابُوا لِلْمَلِيكِ وَمَجَّدُوهُ

ولنختم هذا الفصل بقوله :

تَشَابَهَتِ الأشْيَاءُ طَبْعًا وَصُورَةً ... وَرَبُّكَ لَمْ يُسْمَعْ لَهُ بِشَبِيهِ

هذه أقوال من يتهمه المتخرصون بإنكار الإله ، سقناها إليك لتكرر النظر فيها المرة بعد المرة ، ثم نكلك إلى محاسبة نفسك ، ومحاكمة فكرك ؛ هل ترى فيها غير التوحيد والتنزيه ، وإجلال اسمه تعالى ، والطمع فى رحمته ، والخوف من عقابه ، والحض على التقوى ، والإنكار على الملحدين ؟

ولا نخالك بعد ذلك إلا منصفه ، إن كنت من المخلصين .

فصل فى معتقده فى النبوات والرسل

يتهم الكثيرون أبا العلاء بجحد النبوات ، وعدم الإيمان بالبعث والنشور ؛ وكثيراً ما يتعمدون تحريف كَلِمِه ، أو صرف ظاهره إلى غير مراده ، افتياتاً عليه ، وانتصاراً لمدعاهم . فضلاً عما وضعوه على لسانه من الكذب والبهتان ، كما أثبته نَقَلَة أخباره . وقد مر بك حديثه مع القاضى المنازى ، وكيف اقتضبه الرواة ليثبتوا إلحاده وإنكاره للآخرة . ونقل ياقوت والسلوى عن القاضى أبى يوسف عبد السلام القزوينى أنه قال : « قال لى المعرى : لم أهج أحداً قط . فقلت : صدقت ، إلا الأنبياء عليهم السلام ! فتغير لونه . أو قال : وجهه . اه » ولا أدرى ماذا يثبته هذا الحديث أو ينفيه .

وإليك ما ذكره العلامة ابن الوردى فى تتمة المختصر ، وهو من أدق الباحثين فى أمره . قال : « قال لى يوماً بعض أصحابى من الأمراء ذوى الفهم : كيف كان أبو العلاء فى اعتقاد البعث ؟ فأنشدته قوله :

فيَا وَطَنِي إنْ فَاتَنِي منْكَ سَابِقٌ ... منَ الدَّهْرِ فَلْيَنْعَمْ لِساَكِنِكَ الْبَالُ

وَإنْ أَسْتَطِعْ فى الْحشْرِ آتِكَ زَائِراً ... وَهَيْهَاتَ ، لِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَشْغَالُ

وبلغنى أن بعضهم زعم أن أبا العلاء كان ينكر النبوات ، فهذا مردود بقول أبى العلاء :

عَجِبْتُ وَقَدْ جُزْتِ الصَّرَاةَ رِفْلَةً ... وما خَضِلتْ مما تسرْبَلْتِ أَذْيَالُ

أَعُمْتِ إِلَيْنَا أَمْ فِعَالَ ابنِ مَرْيَمِ ... فعلتِ ، وهل يُعْطَى النُّبُوَّةَ مِكْسَالُ

وقوله فى شريف :

يا ابْنَ الَّذِى بِلِسَانِهِ وَبيَانِهِ ... هُدِىَ الأَنَامُ وَنُزِّلَ التَّنْزِيلُ

عَنْ فَضْلِهِ نَطَقَ ٱلْـكِتَابُ وَبَشَّرَتْ   بِقُدُومِهِ التَّوْرَاةُ والإِنْجِيـلُ

وقال فى الشريف أبى إبراهيم العلوى الموسوى :

يَا ٱبْنَ مُسْتَعْرِضِ الصُّفُوفِ بِبَدْرٍ   وَمُبِيدِ ٱلْجُمُوعِ مِنْ غطفَانِ

أَحَدِ ٱلخمسَةِ الّذِينَ هُمُ ٱلْأَغْ   رَاضُ مِنْ كلِّ مَنْطِقٍ وَالمعَانِي

والشُّخُوصِ الّتِي خُلِقْنَ ضِيَاءً   قبلَ خَلقِ ٱلمرِّيخِ وَٱلْمِيزَانِ

قَبْلَ أَنْ تُخْلَقَ السَّمٰوَاتُ أَوْ تُأْ   مَرَ أَفلاَ كُهُنَّ بِالدَّوَرَانِ

وَافَقَ ٱسْمُ ٱبْنِ أَحْمَدَ اسمَ رَسُ   ولِ اللهِ لَمَّا تَوَافَقَ ٱلْمَعْنَيَانِ

يَا أَبَا إِبْرَاهِيمَ قَصَّرَ عَنْكَ الشِّ   عْرُ لَمَّا وُصِفْتَ بِالقُرْآنِ

أُشْرِبَ ٱلعَالَمُونَ حُبَّكَ طَبْعاً   فَهْوَ فَرْضٌ فى سائِرِ ٱلْأَدْيَانِ

وقوله :

أَيَدْفَعُ مُعْجِزَاتِ الرُّسْلِ قَوْمٌ   وَفِيكَ وَفِى بَدِيهَتِكَ ٱعْتِبَارُ »

انتهى كلام ابن الوردى . وما ذكره من الشعر منقول من سقط الزند .

ولقائل أن يقول ما لـكم تنتصرون للرجل بكلامه فى سقط الزند ، وهو لم يقصد به بياناً لمذهبه ، أو شرحاً لمعتقده ، بل جرى فيه مجرى الشعراء فى أفانينهم الشعرية ، وأخرجه مخرج هيامهم فى كل واد من القول وضرب من الخيال ؛ وهم كما تعلمون يجوّزون الـكذب ، ويقولون ما لا يفعلون ؛ فشأنه فى ذلك شأنهم ودعواه دعواهم ؛ فإذا مدح شريفاً لم يكن له بد من تقديس آبائه ، والإقرار لجدهم عليه الصلاة والسلام بالنبوة والرسالة ، تعظيما لشأن الممدوح ؛ كما لا مندوحة له فى الرثاء عن وصف ما لقيه المرثىّ من التكريم فى جنات النعيم ، ليكون قوله مقبولا لدى من يخاطبهم ، وأدعى للحظوة عندهم ، وإن لم يكن هو معتقداً له .

وما يقال فى هذا يقال فى غيره ، وإلّا للزمكم أنه كان على غير ما تَدَّعُون له من الزهد والتقوى ، لما أثبته فى هذا الديوان من الغزل والتشبيب و بكاء الشباب والفخر ، وهى والزهد على طرفى نقيض . فلو اقتصرتم على ما فى لزوم ما لا يلزم ونحوه من الكتب التى وضعها لبيان فلسفته وآرائه ، لسلمتم من مثل هذا النقد .

ونقول فى رد ذلك : ربما كان لما ذكرتَ وجه من الصحة ، إلاَّ أنا لما رأينا كم آخذتم الرجل على بعض ما جاء فى هذا الديوان ، واستدرجتم به إلى الطعن فى عقيدته ، مع أنه لا يخرج عن الغلو المألوف للشعراء كما بيناه آنفاً — استجزنا أيضاً أن نحجّكم بما جاء فيه من صريح ذكر الحشر ، والإيمان بالرسل و إثبات المعجزات لهم عليهم السلام . وشتان ما بين حجتينا . على أن ما ادعيتموه لا يصح الحكم به على مطلق شعر يقوله الشاعر ، و إلّا فالويل للشعر والشعراء بعدئذ .

***

و بعد ، فإنا لم نحكم لأبى العلاء بصحة إيمانه بالرسل والنبوات إلا من أقواله المثبتة لذلك ، المصرحة به . فلا ريب فى أن ما يوهم فى ظاهره نقيضها من أقواله الأخرى ، مؤول بما يحتمله لفظه ؛ وكثير منها لم يرد به الطعن على الأديان نفسها ، بل أراد أهلها ومنتحليها ، لتفريطهم فيها أو إفراطهم ، كما صرّح به فى أقوال أخرى ، سنأتى عليها فى هذا الفصل .

وقد رأيت بعض المتعصبين عليه يظفر بالبيت الموهِم ، فيرويه فذًّا من غير نظر لما قبله أو بعده . ولو تدبر ذلك لظهر له مراده ، ولم يجد سبيلا للطعن عليه .

على أنا مع هذا لا نبرئه رحمه الله من بعض سقطات زلّ بها لسانه ، ليس فيها جحد للنبوات ، ولكن ذكرها لا يخلو من شناعة . فكان الأولى له التفادى عن نظمها فى هذا السمط . ولا مشاحة فى عذر من أنكر عليه فيها ، وإنما

كلامنا فيمن يرميه بالإلحاد ، وهو براء منه ، بدليل ما ذكرناه من كلامه وما سنذكره .

***

أما من استدل على إنكاره النبوات ، وتحكيمه العقل فى التحسين والتقبيح ، بقوله :

عَلِمَ الْكَائِنَاتِ فِي كلّ وَجْهٍ ... أَوّلٌ عِنْدَهُ السِّماكُ صَبِيٌّ

خَالِقُ النَّيِّرَاتِ ما يتَغَابَى الْـ ... ـعَبْدُ لَكِنَّهُ ضَعِيفٌ غَبِيٌّ

أَيُّهَا الْغِرُّ إنْ خُصِصْتَ بعَقْلٍ ... فَاسْأَلَنْهُ فَكلُّ عقلٍ نَبِيٌّ

فقد أخطأ المرمى ، ونكب عن سبيل القصد ، فإن مراده بقوله « فكل عقل نبى » أن العقل كاف فى الإخبار والدلالة على وجود صانع لهذه الكائنات ، ولا عذر للعبد فى جهله بخالقه ، ما دام له عقل ينظر به و يستخبره ، كما يدل عليه سياق الأبيات عند التأمل .

وهذه المسألة من المسائل التى قام فيها الخلاف بين أئمة الكلام ، وانقسم فيها أهل السنة إلى قسمين . فذهب جمهور الماتريدية وعامة مشايخ سمرقند إلى أنه تعالى لو لم يبعث للناس رسولاً لوجب عليهم بعقولهم معرفة وجوده تعالى ووحدته واتصافه بما يليق به من الحياة والعلم والقدرة وغيرها ، وكونه محدثاً للعالم ؛ وهو أيضاً أرجح قولى الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه . وذهب جمهور مشايخ الأشاعرة إلى أنه لا يجب إيمان ولا يحرم كفر قبل بعث الرسل . ولا يرد على الأول أنه لو كان العقل حجة كافية ما أرسل الله الرسل ، ولا كتفى به ؛ لأنه يقال فى جوابه : لما كان أمر البعث والجزاء مما يشكل على العقل وحده ، إلا بعظيم تأمل فيه ، وكذلك أنواع العبادات والحدود ونحوها لا تنال بمجرد العقل — كان إرسال

الله تعالى رسله وإنزال كتبه ، لبيان ذلك . وأصل الخلاف إنما هو فى الإيمان بالله ، لا فى أحكام الشرائع . فإن قيل لو كان العقل كافياً فى ذلك لاقتصرت الشرائع على بيان ما ذكرتم ، ولم تتعرض لأحكام الإيمان بالله تعالى وتنزيهه ، واتصافه بصفاته اللائقة ونحوها ، اكتفاء بدلالة العقل عليها . قلنا : كان ذلك لزيادة التمكين وتمة البيان ، من قبيل توارد الأدلة وتعاقبها . فإنه تعالى لم يدعنا والبيان بآية واحدة ، بل مَنَّ علينا سبحانه بآيات متكررة . وكذلك لم يدعنا ورسولاً واحداً من أول الأمر إلى آخره ، والحجة كانت قائمة بالواحد ، كما بقيت بنبينا عليه الصلاة والسلام إلى القيامة ؛ فلا يدل ذلك على أن الرسول الواحد أو الآية الواحدة لم يكونا حجة كافية .

هذا محصل ما ذكروه فى هذا المقام ، ولكل من الفريقين أدلة من الكتاب والسنة يحتج بها لمذهبه ، فاطلبها إن شئت فى كتب الكلام ، خصوصاً فيما أُلف منها فى الخلاف بين الماتريدية والأشعرية ؛ وانظرها أيضاً فى كتب التفسير عند قوله تعالى : « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً » .

